2020

30.12.2019

اميل حبيبي
الآثار الكاملة

اميل حبيبي

لُكع بن لُكع

ثلاث جلسات أمام صندوق العجب

اميل حبيبي

لُكع بن لُكع

ثلاث جلسات أمام صندوق العجب



لُكع بن لُكع

ثلاث جلسات أمام صندوق العجب

حكاية مسرحية



إميل حبيبي
لُكع بن لُكع:
ثلاث جلسات أمام صندوق العجب
حكاية مسرحية
(الطبعة الأُولى صدرت عام ١٩٨٠)

Emile Habiby
Luka' bin Luka'
(Luka' the Son of Luka')

النّاشر: دار عربسك للنشر، حيفا
المحرِّرة: سهام داوود
تصميم: شريف واكد

ISBN 965-7388-02-3

الموزع الرئيس: مكتبة كل شيء – حيفا

ساهم في إصدار هذه الأعمال مؤسسة عبد المحسن القطّان

Arabesque Publishing House
P.O. Box 6370, Haifa 31063

إهـداء:

إلى حنين وفرَح حتى يكون اللقاء بينهما فرحًا

«لا تقوم الساعة حتى يلي أُمور النّاس
لُكَعُ بْنُ لُكَعَ»

(حديث شريف)

الجلسة الأُولى

مجنونة بَدر

« أُناديكم. أُناديكم.
أشدُّ على أياديكم.
أبوس الأرض تحت نعالكم.
وأقول أفديكم.
فمأساتي التي أحيا
نصيبي من مآسيكم ».

(توفيق زيّاد)

(١)

صندوق العجَب

الفُرجَة برغيف فوق طبق طرعاني

لا مسرح ولا من يتعبون. بل جمهور من أهل الحارة، ونحن من أهلها، يجتمعون لقضاء أُمسية أُسطوريّة مع صندوق العجَب.

ونكون مؤهّلين لضرب الماضي بالحاضر والخلف بالسلف والحابِل بالنابِل. فقد قيل لنا إنّ ثمن الفُرجَة على صندوق العجب رغيف من الخبز العربي الذي، لأمر ما، أبقوا على عروبة اسمه. وقد وقعوا في هذا الإهمال الأمني حرصاً على الاضطهاد القومي الذي في البدء كان. فرغيف الخبز العربي في بلادنا أغلى ثمناً من الخبز الإفرنجي بقرار من الدولة، وما أدراك ما الدولة. قطعت عنه الإعانة الحكومية المقرَّرة لسواه من خبز العيش على اعتبار أنه بذخ كتعاطي البسكويت والجاتو والطورطة.

ويكون أصحاب الأُمسية قد انتدبوا صبيًّا وصبيّة يقفان أمام باب القاعة وهما يحملان طبقاً من ورق النخيل كالذي كانت جدّاتنا تجدِّلنه وتصفّ عليه أقراص العجين فنحمله

نحن، أحفادهنّ، إلى الفرن القريب. ويكونون قد جاؤوا بهذا الطبق، شرطًا، من قرية طرعان الجليلية القائمة على عهد هذه الأطباق حتى يومنا هذا متحدّية الاستيطان الذي يُطبق عليها من كل جانب.

ويكون المشترك في الأُمسية قد حطّ رغيفه على الطبق. فنحطّ رغيفنا ونُقبِل على الفرجة منفرجي الأسارير.

وفيما نحن على هذه الحال من الانفراج إذا برجل، في ثياب المهرّجين، يتقدَّم نحو صدر القاعة وهو يدفع أمامه بعربة صغيرة نصب فوقها صندوقًا مُزركشًا بزخارف. ويعلِّق على كتفه اليمنى، كما تعلَّق البندقية، مقعدًا خشبيًّا ضيِّقًا بطول الصندوق. وعلى كتفه اليسرى يعلِّق كشكولاً كبيرًا متدليًّا حتى رجليه كأنه يد ثالثة. ويكون للصندوق طاقتان من زجاج كأنّهما عينان بلا رموش. عينان جامدتان أشبه بعيني حمار أعجم. والحمار الأعجم، كما تعلمون، هو ذلك الحمار الذي سلم، بالعجمة، من عاهة النطق. فأنعِم وأكرِم!

ويكون للصندوق أُذنان مستديرتان كبيرتان هما دولابان من خشب في قفا الصندوق. دولاب في اليسار ودولاب في اليمين. ونعلم، نحن الذين أخنى علينا الذي أخنى على لُبَد، أن شريطًا من الرسومات الأُسطورية الملوّنة قد لفّ على عمود الأُذن اليمنى وربط أوله بعمود الأُذن اليسرى. فيحركها

صاحب الصندوق فيتحرك شريط الرسومات، من وراء العينين الزجاجيتين، من اليمين إلى اليسار – حكمة، لو تعلمون، قديمة. وأما نحن، القدماء، فنفهم من هذه الإشارة أن صاحبنا محسوب على أصحاب الميسرة.

هذا هو، إذن، صندوق العجَب كما كان آباؤنا وأجدادنا يسمّونه. وفي بلدان عربية أُخرى سُمِّي صندوق العجايب. وفي غيرها صندوق الدنيا. وأولاد الحارة – نحن ومن حولنا – صناديق مقفلة. فيأتي المهرِّج، بصندوقه وبحكاياته، حتى يحطّم أقفالها.

وأشدُّ ما يشدّنا إلى المهرّج الشبَه بينه وبين صندوقه: العينان متشابهتان اتساعًا وجمودًا. والأُذنان ضخامةً واستدارة. كما تشابهت الزخارف: أجراس ماعزيّة تجرّس وحوافر خروفيّة جافة تخرّف وخرق متعددة الألوان، متنافرة، تزركش بها المهرّج، كما زركش بها صندوقه حتى كأنهما يحتفلان بعيد الاستقلال.

فلا نتمالك أنفسنا عن الدهشة. ونحتفل بصندوق العجب بإبداء التعجُّب وبالمهرّج بالهرج. حتى إذا علا اللغط والتساؤل ولا جواب سوى الهسهسة – أي هُس هُس – إذا بالمهرِّج ينيخ مقعده أمام عيني صندوقه. ثم يخرج من كشكوله صنجين نحاسيّين مستديرين كأنهما رغيفا خبز أُخرجا، للتوّ، من

التنّور. فيحمل كل صَنْج في يد. ويصفِّق بهما ثلاثًا. فيسكن الهَرْج وينقطع اللغَط. فلا همهمة ولا هسهسة كأن على رؤوس أهل الحارة الطير. وتدهمنا القحقحة فنعتبرها قِحَة. فنكظمها تهيُّبًا.

ويروح المهرّج ويجيء. يصفّق بصَنْجَيْه وينشد أشعاره القديمة حتى كأننا، يا بدر، لا رحنا ولا جينا:

«قُم تفرّج يا سلام على عجايب الزمان»

يكون المهرّج، صاحب الصندوق، يُنشد وينادي:

«قُم تفرّج يا سلام على شيء كان وما كان
شوف بوزيد الهِلالي قاعد يبعزق بأموالي
شوف ذياب بن غانم، غانم إيش وهو نايم؟
شوف تغريبة بني هلال، صار الحال بقدر الحال
قُم تفرّج يا سلام على عجايب الزمان
صندوق العجَب!
صندوق الدنيا!
تعالوا وتفرّجوا على ما كان
وعلى ما هو كائن. شيء كان وشيء يرفض أن
يصبح في خبر كان.
تعالوا يا صناديق الدنيا،

يـا أولادي!
تعالوا نفتحها!
افتحوها. تنفّسوا ملء صدوركم. شهيق. زفير
شهيق، زفير!
حين كان ما كان،
في غابر العصر والأوان،
وكنت أُطلّ على الحارة بصندوقي،
أُجرس بأجراسي وأُخرف بحوافري الخروفيّة،
كان الصغار يتحلّقون حولي كالهلال الخصيب.
ويتناوبون النظر في عيني صندوقي،
اثنين اثنين.
كانت أجنحتهم مكسورة.
فكنت أحكي لهم عن العُقبان والنسور.
كانوا صعاليك.
فكنت أحكي لهم عن فرسان الصعاليك.
كانوا ريشة في مهبّ الريح.
فكنت أحكي لهم عن بساط الريح.
وكانت الفرجة برغيف. فإذا عزّ الرغيف فبنصفه
أو بربعه.
فإذا جاءت الستّ بدور

بولدها بدر

فبابتسامة من عينيها المرعوبتين.

أنا ألفّ بالشريط.

والدُّنيا تلفّ بنا.

تلفّ وتدور.

هلمّوا يا أولادي.

لقد عزّ الرغيف ونصف الرغيف

وربع الرغيف.

ولكن نظرة العطف والحب

والشوق باقية».

وفجأة يتوقّف المهرّج عن الكلام وينتصب أمامنا بلا حراك حتى نحسبه تمثالاً نُحت في صخر، حين يحتوينا صوت الشيخ إمام وهو ينشد أبياتًا من قصيدة توفيق زيّاد «أُناديكم»:

«أُناديكم. أُناديكم.

أشدُّ على أياديكم.

أبوس الأرض تحت نعالكم

وأقول أفديكم!

فمأساتي التي أحيا

نصيبي من مآسيكم.
أُناديكم. أُناديكم.
أشدُّ على أياديكم.
أنا ما هُنت في وطني
ولا صغّرت أكتافي
وقفت بوجه ظلاّمي
يتيمًا عاريًا حافي
حملت دمي على كفّي
وما نكّست أعلامي
وصُنت العشب فوق قبور أسلافي.
أُناديكم. أُناديكم.
أشدّ على أياديكم»(*).

وما إن يتلاشى هذا الصوت المتفجّر حتى تعود الحياة إلى تمثال المهرّج فنسمعه يعود إلى نداءاته: «أُناديكم. أُناديكم! تعال يا بدر. تعالي يا بدور. كأننا، يا بدر، لا رحنا ولا جينا».

(*) الشيخ إمام عيسى، من حي الغوريّة العتيق بالقاهرة. فنان شعبي وثاني اثنين أحدهما الشاعر المصري أحمد فؤاد نجم: هذا ينظم الشعر قلائد من دمه وذلك يغنّيها على أوتار فؤاده فيجتمع الشعر والغناء في نقطة أرخميدس، إلاّ أنها فوق أرضنا: بين العمال والطلبة.

(٢)

لا بَدر ولا بدران، ولا بدريّة ولا بَيدر!

وفيما نكون متردِّدين بين السماح لأولادنا بالتفلّت منّا، تلبيةً لندائه، وبين إحكام القبضة عليهم، على أن الأمر مجرّد تشخيص، إذا بامرأة وقور في ثياب خريفيّة، على جمال خريفي، تنتصب من بين مقاعدنا وهي تردّ على المهرّج أن: «لا! لا! بل رحنا وجينا. ولكن بدراً لم يعد»!

ونراها، وقد شدّتنا المفاجأة إليها، تتقدّم نحو المهرّج وقد خفضت من جناحيها كما لو أنها طير يطوف حتى يهبط.

ونلتفت نحو المهرّج فإذا بحالنا من بعض حاله: يُسقط صَنْجَيْه ويتمتم بقُمْ وتفرّجْ ولكن بغير يا سلام. ويردّدهما بلا مناداة. ويهمّ بأن يحرِّك أجراسه فلا يقوى على حركة سوى أن يميل إلى اليمين وإلى اليسار فعل رقّاص الساعة.

وما إن يلتقيان حتى يدور بينهما الحوار التالي، والبادئ المهرّج:

المهرج: بدور! بدور الخرساء
سوى طلاقة عينيها.

بدور: بل بدور الخنساء يا قشمر!

المهرج: بدور البشائر..

طير السنونو المبشّر بعودة الربيع!

أرأيتِ، يا بدور؟

لا رُحنا ولا جينا.

بدور: بل رحنا وبقيتم يا قشمر.

المهرج: بقينا حرصًا على البقية يا بدور.

بدور: وتركتمونا، في متاهات الفيافي، نتيه في مجاهل التجربة الأُولى.

وكأنكم لم تكونوا!

هل وُلدنا من الحائط..

يا غربال الماضي؟

المهرج: صندوقي علّمني، يا بدور، أن مسيرة التاريخ البشري قد حفرت،

عبر آلاف السنين،

أُخدودًا عميقًا في جبين الأرض

حتى لا تنساب جميع الأنهار

إلاّ في هذا السّيْب،

في طريقها إلى مصبّها.

لا سيْب أمام أي شعب من الشعوب

سوى التجربة الذاتية.

وما من شعب يستفيد
من تجارب الشعوب الأُخرى.
كان عليكم أن تقلعوا أشواككم
بأظفاركم!

بدور: هل أصبحتم، يا قشمر،
من الشعوب الأُخرى؟
لماذا كان علينا أن ندفع
كل هذا الثمن؟

المهرج: لا تلومي الضحيّة.

بدور: لماذا كان علينا أن نحمل
كل هذا الزمن؟

المهرج: لا تلومي الضحيّة.

بدور: لماذا كان علينا أن نكبو؟

المهرج: لا تلومي الضحيّة.

بدور: ثم كان علينا أن نحبو؟

المهرج: لا تلومي الضحيّة.

بدور: لماذا نحن غرباء؟

المهرج: ولكن غرناطة لم تَنسكم.

وإذا بالمهرج يرفع صَنْجَيْه عن الأرض ويصفّق بهما وينادي:

«إستمعي يا بدور! إستمعي يا دهور،
إلى شاعر الأندلس الطريد(*) يغنّي على أُرْغُله
لحن حنين إلى غرناطة».

وإذا بشيخ مهيب الطلعة يرتدي عباءة عربية فضفاضة يُقدِم نحو المهرّج وهو يحمل أُرْغُلاً يزمّر فيه لحنًا حزينًا. ويظلّ اللحن الحزين يعلو وينخفض، وهو ينطلق من مكان آخر في القاعة، في حين يأخذ الشيخ في إلقاء الأبيات التالية في صوت رتيب وخفيض:

«ها نحن غرباء عن هذا العالم إلى الأبد،
ما دامت غرناطة تنسانا.
يا شعبي، المتناثر مثل سرب من الحِجْلان:
نيران أُخرى جاءت تشتعل في قُراك، تتحدث عن
إله آخر بلغة أُخرى.
أين تمضي باحثًا عن أوطان وهميّة؟
أيها العصر الذهبي!
أيها العصر الذهبي المتألّق من كل الجهات.
يا عصر الآلام الغرقى بالدم من كل الجهات.
يعرو الخوف ملك إسپانيا حين يشاهد الهلال يبدو
قبل الأصيل».

ويمضي الشيخ بأُرْغُله. ولكن اللحن يظلّ يلحّ على أسماعنا إلحاحًا. ويعود المهرّج إلى بدور. ونكون مضطربين: ماذا يعتمل في صدر بدور؟ وإذا بالمهرّج يعود إلى مخاطبة بدور:

المهرج: يظلّ القشر يحنّ إلى عوده.
ها أنتِ تعودين يا بدور.

بدور: أعود بدورًا خريفيّة.

المهرج: الخير في بدر.
بدر الربيع.
بدر الدُّجى.
سراج الدنيا.
بدر سيعود.

بدور: بدر عاد يا ابن عمّي.
عاد بدر يا حنين الصِّبا.

المهرج: أين بدر يا بدور؟
هل عادوا وأبعدوه؟

بدور: بُعدهم عن أن يقوَوا على إبعاده.

المهرج: فهل حبسوه؟

بدور: كما يُحبس جذر في بطن الأرض.

المهرج: أين بدر يا بدور؟
بدور: في بطن أُمه.
المهرج: أين بدر يا بدور؟
بدور: قيل لي إِنهم يدفنوننا
في حضن رَبْوَة
تستلقي فوق رمال
عكا.
نُبَرِّد أطرافنا بماء البحر
وحين تفيض..
المهرج: لقد فاضت.
بدور: يدفنوننا في حضن رَبْوَة شقيقة
على الخط الأخضر،
في مقابر قرية المقيبلة
على الخط الأخضر
فنُطلع البقول ناضجة
وحين تفيض..
المهرج: لقد فاضت.
بدور: يدفنوننا في أطراف الطيّبة الطيّبة.
علامات حدود..
وحين تفيض..

المهرج: لقد فاضت.

بدور: يدفنوننا في مدافن بني صعب
في الطيرة
حتى كأننا في مدافن
غزة هاشم.
وحين تفيض..

المهرج: لقد فاضت.

بدور: يدفنوننا في مرتفعات
أُم الفحم.

المهرج: نيران أُخرى تشتعل
فوق هذه المرتفعات.

بدور: ففي كفر قاسم.

المهرج: كفر قاسم وَقْف على أولادنا.
وقد فاضت بهم!

بدور: وبدر، يا ابن عمّي،
أما هو من أولادكم؟

المهرج: اليد واحدة والتربة واحدة..
ففي أية قرية مأواه؟
أين مسقط رأسه؟

بدور: بحثت عنه بين أولادكم.

بحثت عنه في كفر قاسم.
في سخنين في كفر كنا..
بحثت عنه في الطيّبة.
فلم أجده في مقابركم.

المهرج: بدور!
أين بدر؟

بدور: كان يحب رحيق الصبّار.
كان يأكل التينة بشوكها
ويظلّ يلحّ ويطلب.
بحثتُ عنه تحت جذورها.
رحتُ أقتلعها وأُنبِّش عنه.
فكانت تعصى عليّ.
يعود الصبّار ويطلع.
ويعود الصبّار يسخو
برحيقه.

المهرج: بدور!
إن الصبّار لا يزول.
باقٍ كما صبر العربي
باقٍ.
حتى في الأندلس.

لوركا ظلّ يغنّي:
«هنا وهناك تتردد أصداء الصبّار العربي»
بعد ثمنمئة عام!

بدور: لأن بدراً، الموسَّد،
لا يشبع.
لا يرتوي من رحيق
الصبّار.
يظلّ يعضّ عليه
بالنواجذ.
ولا يكلّ
ولا يملّ.
إن أسنان بدر
كمّاشة.

المهرج: بدور!
أين بدر؟

بدور: وجدته..

المهرج: أين؟

بدور: هنا. هناك.
هنا.
أقرَب.

أبعَد.
ولـدي! أولادي!

ونراها، ونحن مصعوقون، تتوجّه نحونا مشرعة جناحيها حتى كأنها تودّ أن تضمّنا، جميعًا، إلى حضنها. إلاّ أن المهرّج لا يكفّ عنها. وإذا به يهتف بها:

المهرج: وبدران، يا بدور؟
أين بدران؟
بدور: غرق في النهر!
المهرج: أيّ نهر؟
بدور: أيّ نهر.
من المحيط إلى الخليج.
المهرج: وبدرية؟
بدور: باعها الأمير في سوق النخاسين.
المهرج: أيّ أمير؟
بدور: أيّ أمير.
من المحيط إلى الخليج.
المهرج: وبيدر؟
بدور: افتقدته في البيادر.
المهرج: أيّة بيادر؟

بدور: أيّة بيادر.
حين تسيّج البيادر
كل البيادر بيادر!

وفيما تكون ماضية تشقّ طريقها في وسط جمعنا، ونحن نشيِّعها بنظرات الإعجاب وبصفق الأيدي، إذا بها تلتفت نحو أولاد افترشوا الأرض بالقرب من مقاعدنا، الواحد أمام الآخر على طول الممرّ الذي يتوسّط القاعة. فتهتف بهم أن:

«قوموا تفرّجوا على صندوق العجَب. أحلى من غَزْل البنات ومن محشي ورق العنب. إنّ في صندوق هذا المهرج نجمتين تُبدِّدان الحُلكة: ما كان وما سوف يكون. قوموا! لا تجعلوه يفوتكم كما فاتني. قوموا! لا تجعلوه يبقى عنكم كما بقي عنّي. قوموا! قوموا!»

(*) الشاعر أراغون، والأبيات من قصيدة «حب لإسبانيا» ترجمة الأديب السوري الدكتور أحمد سليمان الأحمد (مجلة «المعرفة» السورية، كانون الثاني – شباط ١٩٧٨).

(٣)

أحد عشر حجابًا أسود وطفلتان وحجاب أحمر واحد

ونعود بجوارحنا إِلى المهرِّج وقد جرحته بدور بذهابها. فيعود إِلى صَنْجَيْه يصفّق بهما كما تصفّق الندّابات بأيديها. ويقول:

المهرج: كانت بدور تركتنا مضيّعين
وتعبين.
فأردنا أن نوسِّد رؤوسنا على صخور
مراعينا
وأن ننام على أطول حلم
باللقاء الموعود.
فاقتلعوها
وجعلوها علينا حرامًا،
لا في نوم
ولا في قيامة.
فأردنا أن نعيش على أطول
حلم باللقاء
معتصمين بحبل الصبر،

بشوك الصبر،
بالصبر الحامض،
بالصبر المخدّر،
بالصبر الذي سبقنا به
الحشيش والأفيون وشمّ الكوكايين،
بالصبر
هذا السلاح الوحيد
الذي يبيح به الآباء
قتل أولادهم: اِصبر!
اِصبر على الضيم..

وإذا بصوت، كأنه الآهة في الليل الكظيم، ينطلق مردِّدًا هذه الكلمات على نغم الموّال البغدادي (الإبراهيمي). فيسمّرنا. ويسمّر المهرّج في وقت معًا:

صوت: «اِصبر على الضَّيم لو جار الزمان وحكم
فالنذل، يا ناس، على سَبْع البراري حكم
والباز قدره وِطي والبوم ساد وحكم
ناديت: يا أهل الحميّة اليوم قدري ضاع
الفاينة تنقبل والصالحة تنضاع!
ناديت: يا أهل البيت هالحين حقّي ضاع

قوموا انظروا واعدلوا واجروا عليّ الحكم»

فيردّ عليه المهرّج، وهو يروح ويجيء في مِشية المتهكّم أو في مِشية الذي أُسقط في يده:

المهرج: قوموا انظروا واعدلوا واجروا عليّ الحكم.
ناديت..
ما تركونا ننام كي نحلم باللقاء.
وما تركونا نعيش، بالصبر،
حتى اللقاء.
أيقظونا على مجرد البقاء.
أيقظونا!
جعلوا عيشنا طيشاً
وصبرنا حركة سريّة.
قصّروا عيشنا حتى ضاق عن لحظة
صبر.
أصبح الصبر هو
القبر.
وعيشنا أصبح كله
يقظة. ما أصعب العيش الذي كله
يقظة.

ما أضيق العيش الذي يضيق
عن الصبر.
قوموا انظروا واعدلوا.
تعالوا يا أولاد الناس.
تعالوا واجروا علينا الحكم!

• بدور!
إن من خلّف ما مات
يا بدور.
تعال يا ولدي.
يا ابنتي.
تعال يا خلف.
تعالي يا خليفة.
يا صابر تعال ويا صابرة.
تعالي.
تعالوا –
يا صبر ويا صبرة
يا صبّار ويا صبرين،
يا أيوب
ويا آيبة!

وإذا بسرب من الأولاد، صبيانًا وصبايا، أُولئك الذين كانت بدور قد حثّتهم على مشاهدة الصندوق، يهرعون إليه ويصطفّون على جانبي الصندوق كأسنان المشط متأهّبين لأن يتناوبوا القعود على مقعده والتحديق في عينيه الزجاجيتين، اثنين اثنين، ذكرًا وأُنثى، كما خلقهم ربهم الرؤوف بعباده.

ويكون المهرّج، في هذه الأثناء، قد أخرج من كشكوله صحيفة مطويّة. ويفتحها مثلما كانت تُفتح صحيفة من جلد الغزال. ويعلّقها المهرّج على ستارة ظاهرة للعيان.

فإذا هي صحيفة واسعة تخللتها خطوط في غير تنسيق أو في تنسيق قد خفيت حكمته عنّا. وتحسبها حروفًا وما هي بحروف. وتحسبها وجوهًا آدميّة وما هي بوجوه آدميّة. وقد ترى فيها جبالاً وقد ترى فيها سهوبًا. وما هي بالجبال وما هي بالسهوب.

ونروح بأبصارنا نحو الصحيفة فلا تستريح على طلاسمها. بل يعجزنا أمرها. ولكننا نتعالى، تعالي الجاهل، عمّا ينمّ عن جهلنا بالأمر. ويتركنا المهرّج، ونحن على هذه الحال، ويتوجّه إلى مشط الأولاد قائلاً:

«قوموا انظروا واجروا علينا
الحكم.
قوموا!

اثنين اثنين –
ذكراً وأُنثى كما خلقكم ربكم.
انظروا هناك.
انظروا في الصحيفة وما تخلّلها من خطوط
ورسوم،
دارسة وسادرة
وساردة.
واحكوا لنا عمّا تشاهدونه
في صندوقي.
افتحوا صناديقكم
وتنفّسوا.
شهيق زفير.
شهيق. زفير.
أنتما!».

ويشير إلى فتى وفتاة. فيتقدمان ويجلسان على مقعد الصندوق. وينظران في عينيه الزجاجيتين. ثم يستديران ناحيتنا:

الفتى: أرى في الرسم رسوماً دارسة.
قُمقماً من قماقم سيدنا سليمان الحكيم.

الفتاة: أرى ماردًا ينطلق من قُمقم محطّم.
قُمقم من قماقم سيدنا سليمان الحكيم.
حطّموه عليه ليحطِّموه.
فانطلق!

المهرج: وأنتما!

فتى آخر: أرى أثقالاً على ظهر حمّال.

فتاة أُخرى: أراه يهمّ بأن يلقيها عن كاهله.

المهرج: وأنتما!

فتى آخر: أرى مرجًا مخضَّبًا بالدماء.

فتاة أُخرى: أراه مرجًا من الورود الحمراء.

المهرج: اتّفقا!

الفتى: ورود فوق أضرحة.

الفتاة: ورود.

الفتى: ورود.

المهرج: وأنتما!

فتى آخر: أرى الشمس غاربة.

فتاة أُخرى: بل أراها وهي تشرق.

المهرج: اتّفقا!

الفتى: تشرق في الغد.

الفتاة: الغد مشرق.

المهرج: اتّفقا!

الفتى: أُحبُّها وتحبّني. اتّفقنا منذ وقت طويل
على غدنا المشرق.
أُحبها وتحبّني!

الفتاة: أُحبّه. أُحبّه.
ولكن ما العمل بأهلي؟

وتخفي الفتاة وجهها بكفّيها خجلاً وخوفًا وتهمّ بالهروب. فيقطع المهرّج عليها سبيل الهرب بصرخة مدوّية:

المهرج: قفي! قفي يا ابنة العرب اسمعينا. إلى أين أنت هاربة؟

الفتاة: إلى حضن والدتي.
يا أُمّاه!
والداي في القاعة ينظران
كما تنظرون.
وينظرون وينتظرون.
نواطير علينا.
يا أُمّاه!

المهرج: أحضان الوالدين حانية كأشجار الحور
في جنان الخلد.

ولكننا، بعد، خارج الجِنان، بعد،
نعيش!
فاسمعينا يا ابنة العرب!
يا ابنة العرب اذكرينا
واذكري ما فات.

الفتى: ما فات!

المهرج: اسمعينا يا دنيا
نحكي لكم عن أحضان في بلادنا
أصبحت أضرحة.

ويُخرج من كشكوله دفًّا يروح ينقر عليه نقرًا بطيئًا ثم يُسرع في النقر على دفِّه. ويمضي أمام الأولاد ويجيء وهو ينادي:

المهرج: هل جاءكم خبر كفر قاسم
ورقصة الموت في كفر قاسم؟

فيرد عليه الأولاد منشدين:

«أما تفرّج، يا سلام، عينك ترى العجايب».

ويتقدم أحد الفتيان نحونا ثم يقول:

أحد الفتيان: عادوا من أماكن عملهم والشمس عائدة

إلى حضن المغيب القاني.
كان المغيب يحبس أنفاسه
حتى يطلقها دفعة واحدة.
أيها المغيب
حتّام تحبس أنفاسك؟
ألا تختنق؟
أطلِقها أيها المغيب.
أطلِقها.
نحن نختنق!

الفتيان: أما تفرَّج، يا سلام، والحاضر يعلم الغايب.

الفتى: عادوا إلى القرية زرافاتٍ
ووحدانا.
ولكنهم جُمعوا، فيما بعد،
في كومة واحدة.

الفتيان: أما تفرَّج، يا سلام، واعمل حالك مش شايف.

الفتى: جاؤوا وهم يطرحون
السلام
على الضابط المكلّف بتنفيذ عملية –
أخضر.

فتاة: أخضر؟

المهرج: معناه أن الطريق سالك.

الفتاة: سالك؟

المهرج: مالك؟

الفتاة: أيّ طريق؟ الخط الأخضر؟ الخضر الأخضر؟

المهرج: سِيَّان! الخط الأخضر.
السياج الأخضر.
الخضر الأخضر.
سِيَّان!
كلّه أخضر كخضراء الدمن!

الفتيان: أما تفرَّج، يا سلام، إِن كنت، بالله، مش خايف.

الفتى: طرحوا السلام على الضابط المكلّف:
شالوم أيها الضابط.

صوت: هل أنتم مبسوطون؟

الفتيان: تمام، أيها الضابط.

صوت: أُحصدوهم!

ويأخذ المهرّج في النقر على دفّه. فنسمع صوتًا شبيهًا بصوت طلقات المدفع الرشّاش. أو هذا ما ارتسم، عبر طبلات آذاننا، في مخيّلات عقولنا. ومما يزيد الضغط على مخيّلات عقولنا صرخة أُنثوية حادّة تنطلق، دفعة واحدة، من صدور الفتيات:

الفتيات : أُحصدوهم.
أُحصدوهم.
أُحصدوا!

إلاّ أننا لا نراهم يسقُطون. وإذا بالفتاة نفسها تصرخ:

الفتاة : لماذا لم يسقطوا؟ لقد حصدوهم!

المهرج : لأنهم لم يموتوا يا ابنتي.

الفتاة : بل ماتوا.

المهرج : لو كانوا ماتوا
لسمعنا الصخر يبكي.
فكيف لم يبكِ من هم بين
المحيط والخليج؟

الفتيان : أما تفرّج، يا سلام، عينك ترى العجايب.

الفتى : جاؤوا في تسع موجات،
موجة أعلى من موجة.
وسقطوا في تسع موجات.
وظلّت الكومة تتكوّم.
جاءت الموجة التاسعة والأخيرة.
في أساطير الأقدمين أن الموجة التاسعة،
في البحر الهائج،

هي الأشدّ هولاً وفتكًا.
الموجة التاسعة حملت أربع عشرة امرأة
وفتاة،
بينهنّ طفلتان،
نقلن في شاحنة من حقول مدينة اللد
المحرّمة
حيث كنّ يجمعن ثمار الزيتون المقدّس.

المهرج: لقّاطات.

الفتى: سائق الشاحنة،
حين رأى الجثث المكوّمة،
حصيلة الموجات السابقة،
أراد النفاذ بشاحنته نحو القرية.
العساكر أوقفته عُنْوة.
وأمروا الركّاب بالنزول.

المهرج: سائق الشاحنة.
فتى من الطيبة.
زينة الشباب.
نزل من مقعده وتوجّه نحو مؤخرة الشاحنة.
نصب سلّمًا خشبيًّا وتوجّه نحو النسوة والبنات
وهو يقول،

وعيش السامعين يطول:
«اِنزلن يا أخواتي.
ولتشرع كل واحدة بطاقة هُويّتها
بيدها.
نحن لسنا فدائيين.
ولا متسلّلين
ولا مسلّحين
ولا نازلين على طريق حيفا – تل أبيب
خلسة».

الفتى: نزلن.
فرأين الجثث المكوّمة.
فأخذن يستعطفن العساكر أن يأذنوا لهنّ
بالحياة.

فتاة: براس أُمّك،
يا خواجة،
أن تتركنا نعود إلى
القرية.

فتاة أُخرى: أبوس إِيدك، يا خواجة،
خلّني لأطفالي!

فتاة ثالثة: يخلّي لك شبابك

تخلّي لي شبابي.

فتاة رابعة: السلام عليكم وعلى عيالك
يا خواجة.

وإذا بالفتية والفتيات، ويكون المهرج في وسطهم، ينشدون ويرددون الكلمات التالية على نغم الأُغنية العبرية المنتشرة عالميًّا – (هِفينو شالوم عليخم):

«ألقينا السلام عليكم
ألقينا السلام عليكم
ألقينا السلام
سلام
سلام عليكم»

وتصطفّ الفتيات الخمس، وقد أسدلن على وجوههنّ أحجبة سودًا شفّافة، في حلقة راقصة. يرقصن أمام الفتيان وهم يغنّون معًا، أُغنية «ألقينا السلام عليكم».

وفيما هم على هذه الحال من الرقص والإنشاد، والمهرّج منزوٍ في مكان قَصيّ وهو مكتوف اليدين، إذا بأحد الفتيان يخرج عن الجمع ويتقدّم إلى أمام وهو ينادي علينا:

أحد الفتيان: أعينونا يا بنات العرب!

بالبنات الخمس، الراقصات الآن،
لا يكتمل العدد
ولا تروق الحكاية.
أكملن النصاب،
يا أخواتي وأُمّهاتي،
بسبع نساء وطفلتين.
رقصة الموت في حاجة إلى
سبع نساء وطفلتين
حتى يجتمع لنا أربع عشرة أُنثى
عدًّا وهدرًا.

أحد الفتيان: أعينونا يا بنات العرب!
بالبنات الخمس، الراقصات الآن،
«ما نادى المنادي إلى الموت
وعزّ الطلب
في دنيا العرب.
فكيف ونحن نرقص رقصة الموت فحسب
ونشخِّص تشخيصًا!»

ونشعر بالحركة من حوالينا. ويتحاشى واحدنا النظر في عينَي إلفه. ويكون الرقص والإنشاد أمامنا قائمًا. وتنجلي الجلبة

عن خمس نساء يعتلين مسرح الصندوق وهنّ متحجّبات بالأسود الشفّاف.

وإذا بالفتى نفسه يعود ويهتف بنا:

«كَفّ يا شباب! كَفّ يا شباب!»

فنلبّي نداءه على همّ. وبعضنا يفعلها استحياء. وبعضنا يفعلها وهو يشرق بدمعه. إلاّ أن الفتى، وقد تهدّج صوته، يمضي في ندائه:

«بقي عليكم أن تجودوا بوالدتين
وطفلتيهما.
كل والدة وطفلتها.
اثنتين اثنتين
أربع إناث. فيكتمل النصاب».

وإذا بامرأتين تندفعان خارج صفوفنا وتعلوان نحو مسرح الصندوق. كل امرأة ووراءها طفلتها متعلّقة بأذيالها. والوالدة تدفع بالطفلة بعيداً عنها والمولودة لا تُرخي قبضتها الصغيرة عن ثوب والدتها. والمرأتان متحجِّبتان بالحجاب الأسود الشفّاف. وأما الطفلتان، ويا للعجب، فسافرتان. إنهما مسافرتان!

ويقفز المهرّج من زاويته وقد حمل دفّه. ويأخذ في النقر عليه صليات صليات.

وتتجمّع النسوة، القديمات والقادمات، تحاول الواحدة أن تحتمي بجسم الأُخرى. وتندفع الواحدة محاولة أن تخترق الصفّ الأمامي فتندفع الأُخرى والأُخرى والأُخرى. حتّى يتحوّل الضغط في اتجاه المركز إلى قوّة اندفاع دائري. وإذا بكُرة آدميّة تتشكّل أمام أنظارنا. وإذا بالكرة الآدميّة تدور حول مركزها في رقصة الموت التي لم يتحدّث عنها، بعد، أيّ شاعر. ولم يرسمها، بعد، أيّ رسّام. إلاّ إذا لم نفهم طلاسم الصحيفة الشبيهة بجلد الغزال.

ويستمر الفتية في إنشاد أُغنيتهم. ويستمر الفتى المتقدّم بالهتاف، بين الفينة والفينة: «كَفّ يا شباب!» ونستجيب له تارة استجابة المسحور لساحره ونوقظ الآخرين من هذا السحر تارة أُخرى.

وتكون المرأتان، بطفلتيهما، على سطح الكرة الآدمية. الطفلة تندفع نحو أُمّها صارخة يا أُمّاه! والأُم تدفعها عنها صارخة: «أُهربي! أُهربي يا أُمّاه».

وينقر المهرّج على دفّه صَلْية رتيبة. فتقفز الأُم الأُولى عاليًا بعيدًا عن الكرة الآدمية. تُطلق من صدرها آهة أشبه بزغرودة الأفراح ثم تسقط بعد أن تكون، في حركة عفويّة، قد رفعت

حجابها عن رأسها وألقته جانبًا. فتندفع الطفلة نحوها فتقفز الطفلة قفزة خفيفة في الهواء ثم تسقط بالقرب من والدتها دون أن تحسن إطلاق الآهة الزغرودة.

وتظلّ الكرة الآدميّة تلفّ وتدور. ويطلق المهرّج من دفّه صَلْية أُخرى. فتقفز الأُم الثانية وتسقط كما سقطت الأُولى بعد أن تطلق زغرودتها وتُسقط حجابها. فتندفع طفلتها نحوها مثلما فعلت الطفلة الأُولى فتلقى المصير نفسه.

ويظلّ المهرّج ينقر على دفّه صَلْية صَلْية. فتقفز المرأة أو الفتاة في الهواء خارج الكرة ثم تسقط بعد أن تُطلق آهتها وتُسقط حجابها. حتى يسقط الجميع سوى امرأة واحدة وجدت نفسها في مركز الكرة الآدميّة. وتكون منتصبة مثل نخلة باسقة بعد هدوء العاصفة. وتكون تحمل حجابها في يدها. وإذا به حجاب أحمر شفّاف.

(٤)

لُكَعُ بْنُ لُكَعَ

ونلتفت إلى المهرّج فإذا هو مُصاب بالذهول. يُسقط دفّه بين الأحجبة المتناثرة ويتقدّم نحو المرأة ذات الحجاب الأحمر المخلوع وهو يحاول أن يحتضنها بنظرات عينيه الواسعتين. فيشدّنا المهرج إليه. ونُصاب بعدوى ذهوله حتى لا نرى الفتية والفتيات يعودون إلى مقاعدهم في هدوء. ولا يبقى متناثراً فوق مسرح الصندوق سوى أحد عشر حجابًا أسود شفافًا وطفلتين سافرتين. ولا يبقى منتصبًا فوق مسرح الصندوق سوى المهرّج المصعوق والمرأة ذات الحجاب الأحمر في يدها. وإذا هي بدور نفسها.

المهرج: بدور!

بدور: بدور ذات الحجاب المخضّب!

المهرج: كنت هناك؟

بدور: هناك؟

المهرج: أعني هنا!

بدور: كما تراني، إنّي هنا!

المهرج: أعني هناك!

بدور: هناك؟

المهرج: ربّي أعنّي!.. هنا.

بدور: هنا. هناك.

سامحك الله يا قشمر.

ألا تعلم أن الأسياد قد خلطوا بين

الأبعاد؟

المهرج: بدور!

بدور: وهل يقرر المكان سوى الإنسان؟

أنت هنا وأنا هناك.

أنت وأنا الآن هنا.

نحن هنا.

كنت هناك يا قشمر.

ومثل هذه الرقصة

رقصنا في كل

مكان.

فحيث نكون علينا

أن نرقص.

رقّصوها يا حنين الصِّبا.

رقّصوها وهم يزفُّونها إلى النهر

عروسًا.

خضّبوها بالحنّاء
في شهرها التاسع
وزفّوها إلى النهر
عروسًا!
سلام عليها، تلك الظَّبْية الطريد،
وهي تزفّ،
نزيفًا نزيفًا،
فوق بساط أُرجواني من الزعتر
ضمَّخوها ببخور الصندل
وجاؤوا يحملونها على مركبات من نار
عروسًا فاردة!
رقّصونا يا قشمر!

المهرج: بدور!
بدور: تكلّم!
المهرج: من هم؟
بدور: أيَهُمُّ الظَّبْية صيّادها.
المهرج: والأنهار؟
بدور: تعلو مياهها فوق حدّ الخطر
فيُلقون في النهر بالمزيد من
العرائس.

المهرج: عرائسنا؟
بدور: عرائسهم.
عرائسهم عرائسنا.
يعلّون السدود، يا ابن عمّي،
فيرتفع منسوب النهر.
على شطآن نهر ونهر
أقاموا أراجيح
لعرائسهم.
وفي وادي نهر آخر
زنزنوا عرائسهم.
وفي آخر صانوا أعراض أفواه
عرائسهم.
وأما فروجهم فلها الانفتاح!
إن البكارة في شرقنا
خرس
والصبر في شرقنا
هو الإيمان!
إلاّ أن منسوب النهر يعلو
ويعلو!
ستقوم الساعة!

المهرج: بـدورا

بدور: إن بركانًا يتململ تحت الأراجيح.

المهرج: بـدورا

بدور: ينطلق من بين الحطام.

المهرج: بـدورا

بدور: من تحت القصور.

المهرج: على مهلك!

بدور: مهلي مهلي
ويفنى أهلي..

المهرج: مهلك!

بدور: الذلّ مُهلك!

المهرج: أُستريني، يسترك الله بستره، حتى يغضّوا الطرف
عن صندوقي
فأعرضه في حاراتهم.

بدور: يا ساتر. يا ستّار!
إن كلمة السِّر هي الستر.

المهرج: كلمة السِّر؟

بدور: دم دا دم دم واحدة،
ذات رسالة خالدة.

المهرج: دم دا دم دم؟

بدور: جهل جهلجل واحدة
ذات رسالة خالدة.

المهرج: جهل جهلجل؟

بدور: بلع بلعلع واحدة،
ذات رسالة خالدة.

المهرج: بدور؟

بدور: خرس خرسرس واحدة،
ذات رسالة خالدة.

المهرج: بدور؟

بدور: حبس حبسبس واحدة،
ذات رسالة خالدة.

المهرج: سلام على عقلك!

بدور: شنق شنقنق واحدة،
ذات رسالة خالدة.

المهرج: إنك تَهذين.

وإذا بطرق شديد على أبواب القاعة، من الخلف ومن الجانبين، فتشرئبّ أعناقنا وتقفُ له شعورنا.

ونسمع من خارج القاعة صياحًا: «شرطة. بوليس. اِفتحوا. اِفتحوا»، وتكون بدور في أثناء هذه الجلبة تصرخ:

بدور: قشمر، ابن عمّي، أين أنا؟ هناك؟

فيجيبها المهرج: بل هنا!

بدور: أين؟

المهرج: في بلاد الواق الواق.

بدور: إنك تَهذي.

المهرج: جاء دوري!
تهذي أو لا تَهذي، أجيب لك إِبريق الزيت؟

بدور: ماذا؟

المهرج: ماذا أو لا ماذا، أجيب لك إِبريق الزيت؟

ويعود الطرق على الأبواب شديداً. ويعود صياح العسكر.

بدور: دَعْهم يدخلون!

المهرج: لو أرادوا الدخول ما انتظروا إذني.
يحطّمون الأبواب ثم يدخلون.

بدور: مثل أشباههم هناك.

المهرج: ثم يزعقون ويُغيرون.

بدور: يزعقون؟

المهرج: حتى يتقيّأوا آدميّتهم.

بدور: يُغيرون على حفلة تشخيص؟

المهرج: فعلوها ويفعلون ولا يشخّصون
سوى الجثث.

بدور: فلماذا لا يغيرون؟

المهرج: لأن الأمر الآن مجرّد تشخيص.
جزء من أُمسيتنا الليلة.

ثم يتحوّل المهرج نحونا. يحمل صَنْجَيْه ويصفّق بهما ويقول:

المهرج: لا شرطة ولا بوليس.
لا من هناك ولا من هنا.
فاهدئي يا بدور
واستريحوا يا جماعة.
لقد كانت الغارة -
الآن، الآن، وليس غداً -
مجرّد تشخيص لإثارة مشاعركم
على الطريقة العصرية.
أردنا أن نمْتح أعصابكم لا أن نمتحنها.
رحم الله شاعر الأندلس الجوّال -
التروبادور -

ابن قزمان.
لمّا رأى الناس لا يُقبلون على شِعره
اصطحب قردًا
فكان يلاعبه حتى يجتمع الناس عليه
فيُلقي قصائده.
لقد فعلناها.
وأخذناها عن الغَجَر.
سقا الله أيام الغَجَر.
كان الشيخ يجوب الأمصار وهو يصطحب طفلة
ترقص
ودبًّا يلعب
وقردًا يُقلّد ستّي العجوز وهي تعجن العجين.
لقد جئناكم بصندوق العجَب
وبراقصات حتى الموت
وبصنوج وبدفوف
وبحوافر خروف.
فلماذا لا نجيئكم بالشرطة،
بالعسكر،
بالبوليس؟
كلّه مجرّد تشخيص!

وإذا بامرأة، أُم أطفال، تنتفض واقفة من بين مقاعدنا وهي تصرخ في وجهه:

«كان جديرًا بكم أن تعلنوا عن منع الأولاد دون السادسة عشرة من الاشتراك في هذه السهرة – كما يعلنون في الأفلام السينمائيّة. أَخَفْتُم أطفالنا!»

فيجيبها المهرج:

كان هذا الأمر ممكنًا،
يا أُختي،
لو كان من الممكن أن تقي الأولاد
دون السادسة عشرة
بطاقةٍ خُطَّ فيها أن
«لا تقتل الأولاد دون السادسة عشرة»
ثم تلصق بقنبلة تَهوي على
صور وصيدا.

ثم يتحوّل المهرّج نحو بدور ويقول:

«تعالي، يا بدور.
أعينيني على إيقاظ الطفلتين

وعلى دفن الأحجبة السوداء
لعلّنا نقوم بعمل مفيد واحد
في هذه الليلة».

وفيما تقوم بدور بهذا العمل المفيد يأخذ المهرج بالتصفيق بصَنْجَيْه. يسحب صندوقه بعيدًا بعيدًا ووراءه تمشي بدور تحمل الأحجبة السوداء ووراءها الطفلتان.

ونسمع المهرج يقول:

«موعدنا القريب، أيها الجمع الحبيب، في الجلسة
الثانية على مقعد الصندوق».

ونسمعهم جميعًا يهتفون، وهم يختفون عن أنظارنا:

«صندوق العجايب، الحاضر يعلم الغايب.
الحاضر يعلم الغايب».

فنصفّق طويلاً. ونخرج لتناول المرطِّبات وفي حلوقنا غصّة وفي صدورنا انقباض. ونرغب في أن نسترجع أُمورًا في مشاهد الصندوق تذهب بانقباضنا. فنبتسم إعجابًا بأنفسنا ولسان حال الجماعة يقول:

«ما لنا ولهذه الهموم؟!».

الجلسة الثانية

بدر..

«الجدع جدع

والجبان جبان»

(شعر أحمد فؤاد نجم / غناء الشيخ إمام)

(١)

فلافل! .. فلافل!

الحارة هي الحارة. وأهلها هم أهلها: قاعدة قاعديّة تصلح في كل مكان وفي كل زمان إلاّ في بلادنا وفي زماننا. ففي بلادنا أصبح الشذوذ هو القاعدة والقاعدة هي الشذوذ.

فعلى أيّهما نبني؟

خُذ لك مدينة الناصرة الأخّاذة. فقد بقيت مثلاً على هذا الشذوذ الآخذ. أبقوا القديم من حاراتها على قدمه، سجنًا متداعي الجدران. وظلّ أهلها هم أهلها لم يتبدّلوا لا في ظاهر ولا في باطن – شعبًا ولغة وتقاليد موروثة تكبر مع الصغير حين يكبر ويتزيّن بزينة الحياة الدنيا ويأخذ في ترميم ما تهدّم من جدران وما تداعى من تقاليد.

ولا يتبادرَنَّ إلى أذهانكم أنّي بهذا القَدْح، أو، إن شئتم، بهذا المدح أخصّ، من دون العمران الظاهر، ناصرة ظاهر العُمَر – المنارة المشيّدة فوق جبل القفزة، نارًا أبديّة تخلّد ذكرى بني تغلب الذين أقاموا، كما تناقل الرواة، في مرج بني عامر. حاشا وكلا!

إلاّ أن حديث بني تغلب في مرج بني عامر ذو شجون. كان

الرواة، فيما مضى، يجوبون بلاد العرب على بساط الريح.. يشرِّقون ويغرِّبون ما وسعتهم أخيلتهم الخيّالة. البلاد بلادنا والخيال خيالنا نجمح فيها وبه كما نشاء. كل سهل قريب وكل جدار طيّب! كان ذلك قبل مجيء الرجل الأبيض واستخراج الذهب الأسود.

فأنت تقرأ، في الحكاية الشعبية - «قصة الزير سالم أبي ليلى المهلهل الكبير» - أن بني تغلب استوطنوا بادية الشام. وإذا بالحكواتي يطير بهم فإذا هم، بلا مقدمة ولا مؤخرة، مقيمون في مرج بن عامر في فلسطين. فماذا عدا ممّا بدا؟ «قصة الزير سالم أبي ليلى المهلهل الكبير» حكاية تروى في أرض الله الواسعة القائمة ما بين المحيط والخليج. لقد أعدتها إليه، ذي الجلال، موقنًا أنه قادر، عزّ وجلّ، على أن يصونها.

ويبدو لي أن البطولة، حتى في سالف العصر والأوان، لا تحقّ لصاحبها إلاّ إذا أقام في فلسطين، صابرًا متصبِّرًا، وعلى مشارف الناصرة شرطًا.

فما من قَدْح فيما ذكرت عن حارات الناصرة سوى قَدْح زناد.

أضف إلى هذه الواقعة البسطريحية(*) أن اسم الناصرة منتشر في العديد من معالم العمران. تتعدَّد الناصرات في الدنيا تعدُّد اسم الأسد في لغتها أو نيف. ونحن نعلم، على

سبيل المثال، عن ناصرة، نازاريت - أُطلقت على حاضرة من حواضر الولايات المتحدة الأمريكية. ولا نعلم عن نسبها شيئًا. وأسفرت ثورة ميريام الأثيوبيّة عن الوجه المشرق، الملتهب بإرادة التغيير، للناصرة الحبشيّة. وأنسابنا الحبشية، عبر اليمن السعيد، ضاربة في غور التاريخ. وقد تجددت نسبة إلى تلهُّفنا على التجديد. فنعمَ القديم ونعمَ الجديد.

وفي بلادنا شيّدوا «قرينة» للناصرة. وهي الناصرة العليا، العلّية، الباب العالي، «نتصرات عيليت». فتظهر، كما تظهر «القرينة»، لناصرتنا في الليل البهيم: بهيمة لها عدّة رؤوس مصابة بالعاهة البابليّة. أرادوا لها أن تظهر، في الليل البهيم، لناصرتنا حتى تردعها عن شقّ طريقها في الليل البهيم وتصرفها عن سواء السبيل في الليل البهيم فتضلّ فتهلك. غير أن ناصرتنا قائمة على أرض مأسدة. و«القرينة»، مهما تتزيّن وتتحضّر، تظلّ عجوزًا قائمة على حافة قبرها تُحتضر.

إن في السماء لخبرا. وإن في الأرض لعِبرا. فما بال البهائم لا تفقه؟!

أرض الله واسعة. وخَلْقُه مرتبطو الأنساب حتى لا «دم نقيّ» سوى دم البهائم. وهذه البدعة البهيميّة لم تأتنا إلاّ على لسان البهائم.

وكان في بلادنا - ويا ما كان في بلادنا - وزير للمعارف

وللثقافة بلغ به الخلط بين وطنية الآدميين وبدعة البهائم شأواً عجيبًا. فلمّا لم يجد في تاريخنا ذكرًا لهذه البدعة أنكر علينا الوطن!

اِلحقوني، أيها المؤرّخون والمستشرقون والمستعربون! هل هناك من مرآة تعكس أفكار عامة الناس ومشاعرهم أصفى من الحكاية الشعبية؟ ولقد وجدت في «قصة الزير سالم، أبي ليلى المهلهل الكبير»، وهي تعود في أصلها إلى شخصية هذا البطل الجاهلي، وظلّ الرُواة الشعبيون يتناقلونها عبر ألف عام ونيف وإلى يومنا هذا، حديثًا مثيرًا يصلح مفاضلة بين معارف البشر وثقافتهم وبين بدعة البهائم.

وذلك حين غدر قوم جسّاس بالزير سالم، أبي ليلى المهلهل الكبير. أثخنوه بالجراح ثم حشروه في صندوق ألقَوه في البحر. فجرفه التيار إلى شاطئ في مملكة «الملك حكمون، ملك بني إسرائيل» فاحتفل به حتى تعافى. فأوكله بسياسة الخيل. ومن هنا نترك الرواية للرواية.

«فانتخب له فرسًا من أطايب الأفراس. كانت طويلة العنق قصيرة الرأس. وأجود من القميرة فرس جسّاس. فاعتنى بتربيتها حتى حالت. فأخذها إلى شاطئ البحر. فخرج عليها حصان من البحر. فشبّ عليها فراحت حاملاً. وبعد عام ولدت مهرًا أدهم. وكان كامل الأوصاف ململمًا. فسمّاه

الأخرج لخروج أبيه من البحر. ثم فعل معها ذلك الفعل ثانية فولدت له مهراً آخر كأنه الأبجر، حصان عنتر. فسمّاه أبا حجلان. واعتنى بهما دون باقي الخَيل. وكان يسوسهما في النهار والليل..».

قال الراوي: «واتفق، في تلك الأيام، أن برجيس الصليبيّ، أحد ملوك الأروام، خرج مع أخيه في مئتي ألف رجل من بلاد كسروان لمحاربة حكمون اليهودي.. وعند إشراق الصباح التقى العسكران وتقاتل الجمعان في ساحة الميدان والتقت الفرسان الصليبية بالأبطال الإسرائيلية».

إلاّ أن الأبطال الإسرائيلية هُزمت في هذه المعركة، في ذلك الزمان. وكان المهلهل يحثّهم على القتال وعلى الصمود. فرأته ابنة الملك حكمون. وكان اسمها إستير. فعلمت أنه بطل نِحرير. فطلبت من أبيها أن يستدعيه. ففعل. فامتطى المهلهل صهوة جواده الأخرج. وحارب الصليبيين فأبلى بلاءً حسناً حتى هزمهم.

قال الراوي: «وعظمت منزلة الزير عند حكمون. وقال: مثلك تكون الفرسان. فإنك اليوم عندي كالولد، وأعزّ من الروح في الجسد. فلولاك كنت في حال تعيس واستولى علينا الملك برجيس..

وكان الملك قد مال إليه كل الميل. فقدمه على جميع فرسان

الخيل. ورفع منزلته على الكبير والصغير. ولقّبه بالأمير.. وأكرمه غاية الإكرام. وأجلسه على سُفْرة الطعام. فلمّا فرغوا من الأكل وشرب المُدام، قال له الملك تَمَنَّ عليّ أيها الأمير، والسيد الخطير. فمهما تطلب أَعطِكَ دون تأخير. فطلب منه الزير أن يعطيه السيف والدرع والمهر الأخرج. وأن يجهِّز له سفينة ويرسله إلى مدينة حيفا. ومن هناك يسير وحده إلى مرج بن عامر محلّ إقامته لأن نفسه اشتاقت إلى أهله وعشيرته».

فلبّى الملك حكمون طلب الزير سالم، أبي ليلى المهلهل الكبير - الحليف للحليف والخِلّ الوفيّ للخِلّ الوفيّ.

وهكذا عاد الزير سالم سالمًا إلى أهله وعشيرته في مرج بن عامر سالكًا الطريق المرجيّة من حيفا إلى ديار بني تغلب في مرج بن عامر، والحمد لله، الذي لا يحمد على مكروه سواه، على ما أصاب بني تغلب من سيطرة البدعة البهيمية. وانظر كيف اختارت العرب العاربة، على مرّ السنين والعصور، ملكًا وهميًّا من ملوك بني إسرائيل ملجأً لبطلهم الأُسطوري الصنديد وفارسهم العنيد وصديقًا وفيًّا في العاديات حتى كأنه السموأل بن عادياء، والسموأل من قبله. فسبحان خالق الأرض والسموات الذي خلقهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا.

هذا ما جرى لبني تغلب ولحيفا ولمرج بن عامر والحارات

الناصرة التي بقيت وبقي أهلها ـ شذوذاً عن القاعدة الشاذة في بلادنا الشاذة.

أما ما جرى للشذوذ الذي أصبح قاعدة في بلادنا فخير مثل أضربه لكم عنه هو مدينة يافا القديمة. ولا أعني يافا القديمة تعميمًا. بل أخصّ حيًّا واحدًا من أحيائها الباقية. فالتعميم في بلادنا يؤدي إلى التعتيم.

إننا نتحدث عن البشر الأحياء منهم لا الأموات. فلا نستطيع أن نُدرج فيهم مقابر يافا على شاطئ البحر الأبيض المتوسط. فإنهم أقاموا فوقها فندق «هيلتون». وما فاض عن حاجته أصبح متنزهًا عامًّا يتعاطى فيه روّاده الحب والعذرة والمخدّرات والشذوذ الجنسي والمهرّبات.

كما أننا لا نستطيع أن نتحدث، في مجال القاعدة والشذوذ والقاعدة الشاذة، عن حيّ العجَمي في يافا. فقد ظلّ، حتى كتابة هذه السطور، يتكلّم العربية الملوّثة. وهذه الواقعة هي التي جنت عليه كما جنت أُختها على عكا القديمة. لقد أُهمل فأصبح جوّه ملوّثًا حتى غضبت الشمس عليه فبخلت عليه بنورها. إلاّ أن العين البصيرة، ذات اليد القصيرة، تستطيع أن تخترق ركام المزابل والوجوه الصفراء فترى أطلال الهندسة العربية، تلك التي انتشرت حتى الأندلس واجتازت بحر الظلمات.

وحين كنّا في هڤانا دي كوبا دُعينا إلى مأدبة عَشاء أقامها لنا رفاق ورفيقات كوبيون في مطعم تحيط شرفاته، ذات الأعمدة الشرقية الشبيهة بقامات الغواني، صحن بيت قديم ذكّرني بأبنية يافا القديمة وعكا القديمة. وكانوا يعزفون ألحانًا كوبيّة أندلسيّة. وكنّا نشرب عصير البرتقال. وكانت الألحان تعصر حُشاشاتنا. واغرورقت عيوننا بدموع الفرحة بالحلم الشرقي القديم الذي قدر على بحر الظلمات فتحقّق في كوبا. ما أعظمه وما أشدّ إشراقه! وهتفت، كما نهتف حين ننتشي بالطرب: «لا غالب إلاّ الله»! وكان إخواني يرددون: «الله! الله!».

فقد أتاني، اللحظة، شعار دولة المرابطين في الأندلس، آخر من نطق بها في الأندلس – «لا غالب إلاّ الله». أتاني ما قرأته عن رحّالة أوروبي عصري وجد، في سقف كنيسة مكسيكية، نقشًا عربيًا، خطوطًا متناسقة وملوّنة في نقش بديع ذكّره بالنقوش في قِباب جامع قرطبة الكبير وعلى قوارير ساحة الرياحين في حمراء غرناطة. فتصفّحه مليًّا حتى فكّ رموزه وقرأ شعار المرابطين: «لا غالب إلاّ الله».

شعار نقشه عبد عربي صانع، بنّاء، أندلسي بائس. مقطوع في بلاد نائية. نقشه تعزية وحتى يقوى على الاستمرار في الحياة.

ورأيته، بعينَي خيالي، يسترق الخطى صعوداً إلى سقف الكنيسة حتى يطرح السلام على نقشه ويستجير بنقشه. ورأيته، بعينَي خيالي، وهو يحدِّق في نقوشه ويلمسها ويمرّ بأصابعه المعروقة عليها مرًّا خفيفًا، لمس العاشق شفتَي معشوقته. ورأيته، بعينَي خيالي، وحيداً في كوخ طينيّ أخرس وأعمى، بلا أنيس وبلا ضوء في الليل الغريب، وقد افترش الأرض المجهولة وأسند رأسه المُتعب إلى كفّيه وأخذ يبني، من كلمات نقشه، جسراً فوق بحر الظلمات. ثم أخذ يمشي فوق هذا الجسر عائداً إلى والديه وإلى إخوته وإلى والدته. أين بدور؟ كيف حالها بعدي؟ الله! الله! يا عكا القديمة. الله! الله! يا يافا القديمة.

هذا ما جرى لحيّ العجمي في يافا وما جرى لعكا القديمة في هڤانا.

أما الحيّ القديم في يافا القديمة، الذي أضربه مثلاً على القاعدة الشاذّة في بلادنا، فهو «ساحة الساعة». حين تعبر الشارع القديم من تل أبيب إلى يافا وتشمّ رائحة البحر، تجدك في ساحة الساعة.

الساعة في مركز الساحة. أشبه بمئذنة شامخة. قامة منتصبة لم يَحْنِها الزمن كما لم يَحْنِ قامة شيخ من أُولئك الذين اشتركوا، أيام الشباب، في ثورة ١٩٣٦. وفوق القامة المنتصبة

ساعة ضائعة تُحصي الزمن الضائع.

وعلى أحد الجانبين تكمن للخلق درفة مسخمة كبيرة مُحاطة بسور فوقه وأمامه أسلاك شائكة. تلك هي وِجار الشرطة. ويضمّ سجنًا أوليًّا، مثل قولك: «إسعاف أوّلي». يجري فيه إِسعاف الزبون باللَّكم وبالرَّكْل. ذاك بالقوائم الأمامية وهذا بالقوائم الخلفية.

هنا وقع الصدام الدموي بين قوات الجيش والشرطة البريطانية وبين التظاهرة الشعبية الوطنية الكبرى في ٢٧ تشرين الأول ١٩٣٣. وكان صدرها من صدور عمّال يافا وبحّارة يافا. وسقط منهم ثلاثون قتيلاً عدا العدد الكبير من الجرحى. إلاّ أن دم الشهيد يظلّ يلحّ ويستطعم. كانوا عزلاً إلاّ من جراحهم. فكرُّوا على الدرنة وأوقعوا الخيّالة عن خيولها. تكفّنوا بالأسلاك الشائكة وأشهدوا الساعة على أنهم لم يبخلوا بأرواحهم حتى تقوم!

وأما في الجانب المقابل للدرنة فتصبر على الزمن الضائع حوانيت قديمة – منذ أيام العرب – تُباع فيها المأكولات الشعبية، من الفلافل حتى حساء العدس. بقيت الدكاكين وبقيت أسماء المأكولات. وفوق الدكاكين تزاحمت المقاهي الشعبيّة الذابلة. تصعد إليها على درجات ضيّقة ومُعتمة. على هذه الدرجات كنّا نسترق الخُطى ونتسلل، في استحياء،

إلى حيث يفرغ الشعب فراغه. فإذا مُسكنا كنّا نعتذر ونقول: علينا أن نكون مع الشعب دائمًا. وها نحن هنا معه، في بؤسه وفي بوسه!

لقد ظلّت الحوانيت والمأكولات وأعراض البؤس والبوس على حالها، منذ أن غادرتنا بدور.

ولكن نيرانًا أُخرى تشتعل الآن في أثافيها.

فلافل! فلافل!

(*) نسبة إلى بساط الريح.

(٢)

تموت الحمير وتَحيا الزريبة

أما في حارتنا، في سهرتنا الممتعة مع صندوق العجب ومع المهرِّج العجيب، فقد بقيت الحارة وبقي أهلها. كأنّنا يا بدر لا رُحنا ولا جينا.

بدر؟ شهيد الزمن الضائع.

ونحن؟ أيُحسب ما نمضيه من زمن في هذه السهرة، الملهاة، في الزمن الضائع؟

مسكين المؤلِّف!

كم ضيَّع من زمن، من عمره، حتى يفرغ همّه في ليلة من ليالينا الفارغة. على إيش؟ هؤلاء المثقفون المتحرِّرون! يسكبون عصارة قلوبهم في الكلمة وهم يحسبون أنها قادرة على قلب العالم! الكلمة وحدها؟

ولو لم تكن وحدها!

هل بخل آباؤنا بأرواحهم؟ فلماذا نلومهم على الزمن الضائع؟ هل هم ضيَّعوه؟!

وفيما نحن في هذه الهموم، قاعدين على مقاعدنا ننتظر، إذا بخفوت الأنوار ينبئُنا بأن المهرّج، بصندوقه، يوشك على

أن يعود إلينا. فنهرب من همومنا إليه وواحدنا يتفرّس في وجوه جيرانه وجاراته لعلّ بدورَ، أو غيرها من المشخّصين، بينهم.

وتمسك الريبة بأنفاسنا. فواحدنا يعرف الجميع. وكلنا معرفة. وقد يكون عبد الله، زوج جارتنا الحسناء، أمة الله، واحداً من المشخّصين وقد أخفى الأمر علينا. ها هي أمة الله. فأين زاغ زوجها؟ الله! الله! يا عبد الله على هذه النعمة. هل زمنه، هو أيضاً، ضائع؟!

وتشطّ بنا الرِّيبة شططًا: هل أنا واحد منهم؟ هل نحن؟ هل جئنا نتفرّج على التشخيص أم جاء المهرّج ليُوقع بنا؟ سمعت هذا المهرج، يومًا، يردِّد كلمة علي بن أبي طالب أن «أفعالكم أنطَقتنا». هل تورَّطنا؟ بالقلب، هل تورَّطنا؟!

أطفئوا الأنوار في القاعة حتى يظلّ ما في القلب في القلب مستورًا لا تراه العيون. أطفئوا الأنوار حتى نتّقي عيني هذا المهرّج أو يتّقي عيوننا.

وفيما نكون نهتف هذا الهتاف في سرائرنا إذا بهاتف من بين صفوفنا يهتف «إطفي الضوّ، إطفي الضوّ»! فيردّ عليه آخر: «هل عادت الحرب؟»، فيجيبه الأول: «بل عاد قشمر بن غمرة».

وإذا بنا نسمع صفق الصنوج. فيُغمض الظلام عيونه سوى

أضواء مسلّطة على مسرح الصندوق. وإذا بالمهرّج يعود وهو يدفع بصندوقه. ونسمعه يقول:

«إِن الحرب لا تعود، يا أولاد، بل تأتي.
الحرب تُقدِم. الحرب تجيء.
فما من حرب إلاّ جديدة حتى ولو استُعملت فيها
الأسلحة القديمة.
الضحايا جديدة، في كل حرب، يا أولادي.
والقتيل لا يُقتل مرة ثانية.
إلاّ بالكلمة..
والقذيفة، بعد إطلاقها، لا تُرَدّ.
ولا تُغسَل ولا يُعاد استعمالها
الحرب لا تعود.
الحرب تجيء».

وإذا بنا نسمع هتافًا أُنثويًّا أن «يحيا السلام! يحيا السلام!» يتردّد ويعلو باقتراب صاحبته منّا.

وإذا بحمار أعجم، أعني حمارًا أصيلاً، يُدفع نحو المهرج وقد زُركش بمثل ما زَركش المهرج صندوقه بل أكثر رونقًا. وتكون امرأة مهندَمة، أُنثى لا غبار عليها، تسوقه من مؤخرته فلا يتأخّر. وتكون تهمزه بعصا في يدها وتردِّد هتافها: «يحيا

السلام! يحيا السلام! ». فتطربنا رؤية الحمار فنضحك عاليًا كما لم نضحك منذ ثلاثين عامًا. وتُضحكنا، خصوصًا، ضحكات أطفالنا وقد خرجوا عن الطَّور.

يقينًا أن أطفالنا لم يُحرموا، بعد، من مشاهدة الحمير. إلاّ أن هذه الهيبة الملكيّة، التي يتمخطر بها حمارنا على وقع « يحيا السلام! يحيا السلام! » ويتمخَّط على مسرح الصندوق كما لو أنه رئيس أمريكي يُلقي كلمة ارتجاليّة أمام المكرفون، منظر لم يشاهده أطفالنا، منذ أيام العرب. مثلما لم يشاهدوا، في عزلتنا المثيرة، راقصات البطن الذائع الصيت وهيبة الملوك والأُمراء وشيوخ النفط، وجهًا لوجه. ونستثني الرؤساء لسببين: أولهما أننا مرؤوسون، رئيس تحت رئيس تحت رئيس وهلمَّجرًّا حتى لم يبقَ مرؤوسًا سوانا. وثانيهما أنهم شاهدوا كافور الأخشيدي، من بعيد لبعيد. فكفروا بالرؤساء ولم يعد هذا الشكل يُضحكهم. فلا عجب إن أصابهم، الآن، العجَب فأغربوا في الضحك وفي الطرب.

ويخيّل إلينا أن المهرج قد اندمج في هذا الجوّ المرح. فها هو يبدأ في الجلسة الثانية على مقعد الصندوق وهو منفرج الأسارير يقول، وعمر السامعين يطول:

« لا بأس. لا بأس يا أولادي.

اِضحكوا!

فالضحك يطلق اللسان
ويشفي من خرس.
يا أجيال الصمت!
آن لكِ أن تضحكي.
تكلّمي!
فإذا لم تتكلّمي، فاضحكي!
اِضحكوا. اِضحكوا.
إذا حبسوا أنينكم، فانفجروا ضحكًا.
انفجروا ضحكًا.
الضحك سلاح ماضٍ ذو حدّ واحد.
لو ضحك السجناء كلهم، في لحظة واحدة معًا،
واستمروا في الضحك،
هل يستطيع السجّان أن يضحك؟
إذا قالوا لكم إن الضحك بلا سبب من قلّة الأدب،
فكونوا قليلي الأدب!
شرّ البلية ما يضحك.
فهل هناك بليّة أشر من هذه البليّة؟
اِضحكوا!
العين للبصر والأُذن للسمع واليد للّمس والفم
للقُبَل.

فاضحكوا!
ولولا خوفي من أن ينتبهوا إِلى هذا السلاح
فيُشرٍّعوا قانونًا يحظرون به عليكم ماء البحر
والضحك..
لأغرقتكم بالضحك.
اِضحكوا!».

ونكون نضحك ونصفّق. ونكون في هرج ومرج. وتكون المرأة تردّد هتافها وتلمس دُبْر الحمار وذيله بكفّها البضّة. وإذا بالمهرّج يصفّق بصَنْجَيْه ويتحوّل نحو الفتاة المُهندَمة قائلاً:

المهرج: السلام يحيا، يا ستّ الحسن، يحيا السلام. ولكن، ما هذا؟

ست الحسن: حمار.

المهرج: أشهر من أن يُعرَّف. ولكن. أما كان أصلح لك أن تقتني درّاجة؟

ست الحسن: هذا يطلع الطلعة بغير جهد منّي.

المهرج: درّاجة بخارية.

ست الحسن: هذا يأكل شعيرًا ولا يحتاج إِلى بنزيل.

المهرج: بنزيل؟

ست الحسن: بنزيم.

المهرج: نفط، يا ستّ الحسن. نفط. بترول. بترو..

ست الحسن: بترو؟ هذا هو اسمه؟

بترو.

المهرج: وله اسم. عاشت الأسامي.

تساوينا والحمد لله.

ست الحسن: بهذا الاسم – بترو – وجدتهم ينادونه.

المهرج: أين؟

ست الحسن: على شاطئ في بحر البلطيق.

المهرج: هل استولى عليه الأُوروپيون مصدرًا بديلاً للطاقة؟

ست الحسن: طاقية الإخفاء؟ كان حاسر الرأس حافيًا.

المهرج: الطاقة!

الطاقة البترولية يا ستّ الحسن.

الطاقة البترولية التي تجفّ وتبقى المستنقعات.

الليموزينات والمستنقعات.

بعد أن ملأوا معاصم نسائهم بالأساور الدبّابات،

أخذوا يشترون الدبّابات. الدبّابات للمحافظة

على المستنقعات.

هل سيلاحقوننا على الحمير بعد أن جفّفوا

البترول؟

ألا يكفّون شرّهم عنّا؟
بعد البترو دولارز حميرو دولارز؟!

ست الحسن: وجدتهم يعرضونه على المصطافين في الشمال.
كانوا يركبونه. كل راكب الدقيقة بشلن.
فبكيت.

المهرج: بكيتِ؟

ست الحسن: مظلوم. ركبوه في كل مكان.
أصله من الشرق وهم أوروبيون.
وطنه في الشرق ويجب أن يعود إلى وطنه.
بترو المسكين..

المهرج: حصل تعارف؟

ست الحسن: قلت إذا كانوا يركبونه فلماذا لا أركبه؟

المهرج: واللقاء؟

ست الحسن: رفع قائمتيه الأماميّتين.

المهرج: بترو..!

ست الحسن: مجرّد تحيّة.

المهرج: ستّ الحسن..!

ست الحسن: عيب..

المهرج: فكيف انطلقتما؟

ست الحسن: راكبًا ومركوبًا.

امتطيته فاستراحت ضمائرهم المعذّبة.

المهرج: ضمائرهم؟

ست الحسن: ضمير أُوروبا النقي.

أُورو ضمير!

إِذا تلطّخ وعذّبهم غسلوه بالدموع وبالدماء حتى يطهر.

المهرج: بالدموع وبالدماء؟

ست الحسن: بدموعهم وبدماء الشعوب الأُخرى.

أُورو حمير..

المهرج: فكيف سمحوا له بالدخول إِلى وطن الآباء والأجداد؟

ست الحسن: خيّروه بين أمرين لا ثالث لهما.

إِما أن يثبت أنه مخصيّ..

المهرج: تقصدين محصيّ.

محصيّ يا ستّ الحسن.

ست الحسن: لا. مخصيّ هذه المرة.

خ خ خ. مخصيّ.

المهرج: كلّنا مخصيّ. وكلّنا مسؤول عن بيضاته.

ست الحسن: أو يُبرز شهادة يُثبت بها أن أُمّه كانت هنا من قبل ألفَي عام.

المهرج: ماذا كانت تفعل هنا؟

ست الحسن: جاهل! حمار!

كلُّكم حمار!

المهرج: بدأنا..؟

ست الحسن: لو لم تكونوا حميرًا لاضطرّ حماري إلى خلع جلده.

المهرج: تأدّبي!

ست الحسن: لا تلوموا حماري.

(وإذا بالمرأة تجهش بالبكاء وتولول).

المهرج: والآن! ما يُبكيك يا ستّ الحسن؟

ست الحسن: الجليل.

المهرج: ما له؟ كفى الشر؟

ست الحسن: بترو يرفض أن يستوطن في مكان آخر.

إما الجليل أو الموت الزؤام.

يحي السلام! يحي السلام!

المهرج: ولا في القرية التي تمشي على أربع؟

ست الحسن: الجليل لا الخليل!

يحي السلام! يحي السلام!

المهرج: حلو. حلو.

ولكن، ما شأن الاستيطان بالسلام؟

ست الحسن: السلام على الجليل!

المهرج: وأهل الجليل ورحمة الله وبركاته.

ولكن..؟

ست الحسن: لكن أو ما لكن، بترو محبّ للسلام.

المهرج: سلام؟!

ست الحسن: سلام أو لا سلام. بترو مبدئي.

المهرج: مبدئي؟!

ست الحسن: مبدئيّ أو لا مبدئيّ. بترو ليس من «چوش إيمونيم».

المهرج: أيضاً؟!

ست الحسن: بترو يرفض أن يرعى خارج الخط الأخضر ولا يأكل عُلّيقه إلاّ في الزريبة.

الجليل لا الخليل!

يحي السلام! يحي السلام!

المهرج: زريبة يا بنت الغريبة!

فلماذا كنت تبكين؟

ست الحسن: التهويد!

المهرج: ما له؟ كفى الشرّ!

ست الحسن: يقولون إنهم يريدون تهويد الجليل لا تحميره.
المهرج: يلعن الحمير وسيرتها!
ست الحسن: يا عدوّ السلام!
المهرج: من؟ أنا؟
ست الحسن: بربري! برابرة! فاشِسْت!
المهرج: مَن؟ نحن؟
ست الحسن: يا عدوّ الإنسانيّة والمدنيّة والعالم الحرّ!
يا عدوّ الدمقراطيّة وأمرهم شورى بينهم!
المهرج: واحدة واحدة.
ست الحسن: كلّه!

يا عدوّ البساتين والزهور والرياض والحدائق
الشعبية
وپارك كندا
وپارك تشرشل
وپارك ترومان
وپارك سوموزا وپارك فرموزا!
المهرج: هدّي على بغلتك!
ست الحسن: يا قاتل الأطفال والنساء الحوامل!
لا حماري!
المهرج: لا حماري؟

ست الحسن: لا حماري!

المهرج: نحن أولاد عمّ يا ستّ الحسن!

ست الحسن: لا حماري!

لا حماري أحمر.

أحمر حماري! ماري. ري. يبيي.

وتنفجر بالصراخ وبالولولة. والمهرج يقف مبهوتًا. وأمّا نحن فنقعد على مثل حاله.

وتقفز ستّ الحسن فإذا هي فوق ظهر حمارها تُشرع في يدها عصاها وتشنّ الغارة على المهرج وهي تُرغي وتُزبد وتُنشد:

«حماري كان دلال المنايا
فخاض غمارها وشرى وباعا
وسيفي كان في الهيجا طبيبًا
يداوي رأس من يشكو الصداعا»

وتنحر المهرج بعصاها وهي تصيح:

«الفاشوش! الفاشوش!

يا لثارات العروش!

رؤوسهم داويتُها وأعجازهم ثبتُّها على العروش.

سيف. فليشرع.
الآن، الآن، وليس غداً
أجراس العودة فلتُقرع!
يا لثارات بحر البلطيق! يا لثارات الرومان
والإغريق! إنهق،
يا حماري، فقد حمّ النهيق!».

وتحوّل عصاها نحو الحمار نفسه. تارة تهمزه في مؤخرته وتارة تضربه على رأسه حتى يَشْرَع في النهيق الحقيقيّ. فتعود إلى شنّ الغارة على المهرج بمزيد من الحماس وهي تصيح متفائلة:

«لقد نهق! متحمّس! سعيداً!».

فيتحاشاها المهرج ويراوغها وهو يستعطفها أن تترفَّق بالحمار ويقول:

«ترفَّقي بالحمار! الحمار حمارك! الحمار ينهق من
شدّة الوجع!».

فتجيبه، وهي تصول وتجول:

«تموت الحمير ويحيى الوطن! تموت الحمير

ويحيى الإسطبل! تموت الحمير وتحيى الزريبة!
تموت الحمير وتحيى الزريبة!».

وتغيب عن أنظارنا وهي تردِّد هذا الشعار المثير حتى يتلاشى.

(٣)

جريدة من الوطاويط تصيت:
وط. وط. يوط. يوط!

وفيما نكون بين مُعجب ولائم، ومصفّق وواجم، إذا بالمهرج يعود إلينا وهو يصلح هندامه ويتنهَّد ثم يقول:

«كلّنا في الهم شرق
كلّنا في الصبر شرق
كلّنا في الصبر حمار.
عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا
وأُورثوا الدِّين تقليداً كما وُجدوا
فما يراعون ما قالوا وما سمعوا
ولا يبالون – من غيٍّ – لمن سجدوا»(*)

«اِقرأوا الدِّين دَيْنًا حتى تمضي هذه الليلة علينا بسلام. الأبيات لأبي العلاء. وتُخطئون إن حسبتم أنهم دسّوا السمّ في طعام شاعرنا الفيلسوف بجريرتها. فالسماء لا تدسّ السمّ للمستظلّين بها بل تظلّلهم. حاشا أن يقتله صاحب الدِّين بل قتله أصحاب الدَّيْن. أُولئك

الذين دعا الناس إلى أن لا يسجدوا لهم.
لا، يا ستّ الحسن، لست لا حماريًّا. فكلّنا عبيد
الله. وأنا أُجِلُّ الحمار عن أن أُطالبه بما أُطالب
به ذوي العقل واليد واللسان.
خصوصًا وأن حمارك، يا ستّ الحسن، لا يرى
حوله سوى الصابرين والصابرات».

وإذا ببدور أُم بدر، بدور ذات الجمال الخريفي، تعود إلى المهرج تهرول وأمارات الاستياء بادية على وجهها. وتتقدَّم نحوه معنِّفة وتقول:

«هناك من لم يصبر، يا ابن عمّي!
أَتَغْمِطُ بدرًا نفاد صبره؟
إن بدرًا لم يصبر يا ابن غمرة.
ولا بدران. ولا بدرية. ولا بيدر!».

فيجيبها المهرج:

«بدر قتله الصبر، يا بدور.
الصبر الموروث. الزمن الضائع.
ألم تسألي نفسك، يومًا، لماذا اخترنا كلمة الجلالة
كي نغدقها على أصحاب الجلالة؟

فآباؤنا لـم يروا من الجلال، ولـم يـبهـرهـم، سوى
جلال الدابّة – البـردعة.
جلّل الإجلاء بها ظهور دوابّهم حتى لا تتأذّى
أعجازهم الرخوة.
فهل أصبح أصحاب الجْلالة أصحاب جَلالة لأننا
أركبناهم على الأجلال؟ على البرادع؟».

بدور: بدر قتله نفاد الصبر من هذا الأمر.

المهرج: بدر بريء. بدر بطل.
بدر القتيل يا أُم بدر.
فلماذا أنتم ساجدون للأعجاز المستجلّة؟

بدور: حاجة..

المهرج: فأيّة حاجة دفعتكم إلى أن تُبردعوا دوابّكم؟

بدور: في بلاد العور اِعْوِر عينك.

المهرج: عراة من وطن ومن علم
وسروجهم من ذهب؟

بدور: «كل حزب بما لديهم فرحون»(**)

المهرج: صدق الله العظيم.
فلماذا نلوم المجوس؟

بدور: المجوس؟

المهرج: كلام عاشقين، يا بدور، لا يفهمه سوانا.

بدور: عشقنا ممنوع.

المهرج: العشق ممنوع.

بدور: ما شأن المجوس؟

المهرج: رحم الله أبا العلاء المعري، شاعرنا الفيلسوف.
مات مسمومًا لأنه قال، فيما قال، ما سوف أُحرِّفه
كي أموت مسمومًا:

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدوا
ويهود حارت والمجوس مضلله
إثنان أهل الأرض: ذو عقل بلا
صبر وآخر صابر لا عقل له!

فلماذا نلوم المجوس؟

هل فهمتم؟

ويحرجنا كلامه. ويكون بيننا مثقّفون قرأوا لزوميّات المعرّي، في لزوم ما لا يلزم. فأدركوا التحريف الذي أجراه المهرِّج على البيتين اللذَيْن استشهد بهما، حتى لا يُستشهد. فنسمعهم يهمهمون في فزع: «لا لزوم لهذا الشعر! لا لزوم! لا لزوم!».
فيبتسم المهرج ويعيد علينا سؤاله:

«هل فهمتم أم أشرح؟ أجيبوا؟».

فيُطبق صمت. فلا يكفّ المهرّج عنّا. ويقول:

«الذين لم يفهموا معذورون
والذين فهموا أصابهم الذُّعر الثقافي».

بدور: الذُّعر الثقافي؟

المهرج: ذعر الإنسان المثقّف من أعباء ثقافته.
لقد تفشّى هذا المرض في الشرق حتى أذاقنا الانفصام والموت الزؤام.
ذعر الإنسان المثقف من علمه بأنه إنسان.
فيعروه الخوف من الناس الآخرين أن يكتشفوا أنه ليس دابّة.
فيدبّ على أربع إمعانًا في صون السر.

صوت من القاعة: على رِسْلك، يا ابن غمرة!
تكتك - تكتك!

المهرج: اطمئنوا، أيها المثقّفون.
لن أكشف سرّكم.
لن أعرّض حياتكم للامتحان الأخير الذي امتُحن به فيلسوف المعرّة:
اطمئنّوا يا أحفاد جاليليو وأبي الطيّب وأبي محفوظ.
أصبح الصبر في شرقنا دينًا.

وهذا هو دَيْنُكُم عليّ.
اصبروا!
اصبروا حتى تمرّ هذه الغمامة.
سحابة صيف!
اصبروا حتى الصيف القادم
ستستركم سحابة صيف أُخرى.
فحتى الصيف الذي بعده
وبعده. وبعده. وبعده.

الصوت: تكتك! تكتك!

بدور: أكلته التكتكة.

المهرج: اطمئنّوا يا أولادي.
تكتكنا وسنظلّ نتكتك حتى تقوم الساعة!
ها أنا أنكبّ على وجهي وأدبّ على أربع،
تكتكة، حتى تطمئنّوا إليّ..

وإذا به يهبط على أربع ثم يحبو على أربع. وهو يهزّ مقدّمته ومؤخّرته فنسمع أصوات الأجراس والحوافر. تلك ترنّ وهذه تخرخش.

وفيما نكون مبهورين بهذا التغيّر المفاجئ في وضع المهرّج، إذا بجريدة من الوطاويط – آدميين في أسمال سوداء وقد

تقنّعوا برؤوس وطواطيّة، يندفعون نحو المهرج وهم يصيتون: «وط. وط. يوط. يوط». ويتكالبون عليه. يمتطون ظهره ويشدّون أُذنيه ويوقعونه أرضًا.

وتحاول بدور أن تفرِّقهم عنه. وتكون، في هذه الأثناء، تصرخ وتولول:

«الوطاويط! الوطاويط!
ألا تعرف الوطاويط حدودًا؟
ألا تُفتح الحدود إلاّ للوطاويط؟!
الوطاويط! الوطاويط!
لعن الله التكتكة!».

فيستعيد المهرج رباطة جأشه. فينتفض منتصبًا على قدميه، مبعثرًا الوطاويط من كل جانب كأنه چوليڤر في بلاد الأقزام.. ونسمعه يصرخ من سويداء قلبه:

«قامت الساعة! أنا الساعة!
أضيئوا الحقيقة!
أشعلوا الإنسان!
أطلقوا السجيَّة!
انطلقوا!
الجدع جدع

والجبان جبان».

وتُسلّط علينا مصابيح كشّافة ترسل أضواءها الساطعة على أشباح عفريتيّة. فتكبر الأشباح وتكبر حتى تتلاشى.

ويكون المهرج يغنّي: «الجدع جدع والجبان جبان» ونحن نصحبه في نشيد منشدين ومصفّقين: النشيد على إيقاع التصفيق والتصفيق على إيقاع النشيد.

«الجدع جدع
والجبان جبان».

فتختفي الوطاويط.

(*) من لزوميّات المعرّي.
(**) آية قرآنيّة.

(٤)

ستة عشر لويسًا ولويس عوض

ويشرع المهرّج في نفض التراب عن ثيابه. ويجمع ما تناثر على الأرض من متاعه. ويسوّي هندامه. ونحن في عجب من حاله: هل هو الجبان أم هو الجدع؟

ونحن؟

فلا يتركنا مذبذبين بين ذلك طويلاً. بل نراه يكفّ، فجأة، عمّا شرع فيه. ويجلس على مقعد الصندوق فجأة. ويأخذ فجأة في البكاء المسموع بلا تحرج منّا أو استحياء.

فتهمّ بدور به وهي مهمومة. وتجلس في محاذاته. وتطوّقه بذراعها وهي تحاول أن تسرّي عنه. ونسمعها تلحّ عليه بالسؤال:

«تبكي، يا حنين الصِّبا؟

تبكي، يا أمل؟

حتى حين أكرهوك على الركوع، لم تركع إلاّ

زحفًا نحو الأسلاك الشائكة لتخترقها.

رأينا خيالك منتصبًا.

كانت له عينان شاخصتان.

تبحثان عنّا في عتاب.
تبحثان في أمل.
جذور موغلة في التربة.
شجرة طيّبة.
أصلها ثابت وفرعها في السماء.
جَذِلة سليبٌ أورقت وبسقت تحديًا.
وحين دفعونا من الخلف، لنقع على وجوهنا،
سمّرَنا خيالك الفارع
وأخجلنا:
عيب يا بدر! عيب يا بدرية!
والآن، الآن، ما يبكيك يا حنين الصِّبا؟
الوطاويط؟
الزمن المضيَّع؟».

فيجيبها المهرج:
«أبكي على الأعمار المضيَّعة.
أبكي على حالي.
أبكي على الثكلى. أبكي على الأرامل.
أبكي على بدر، يا بدور».
بدور: بدر جدع. بدر ابن أبيه.

بدر ابنك.

بدر لم تفترسه الوطاويط.

المهرج: الوطاويط لا تفترس بدراً.

مضت إلى غير رجعة أيام الحوت الذي كان يلتهم البدر.

لم يتركوا لبدر مكانًا يتذبذب فيه ويتكتك.

بدر غير مخيَّر.

بدور: بدر فارس. بدر اختار الشهادة.

المهرج: فإذا لم يخترها، هل يعيش؟

بدور: أين يعيش؟ كيف يعيش؟

وإذا بالمهرج ينتفض واقفًا ويأخذ في الصراخ كمن به مسّ:

«تبًّا لك يا أبا الطيّب!

يا دجّال نبي الدجّالين.

يا قرمطي مرتدّ، مارق، ميكياڤيلي!

قال:

الرأي قبل شجاعة الشجعان

هو أول وهي المحل الثاني

طُزّ..

طُزّ كبيرة ولو مرة واحدة في العمر!

طُزّ حقيقية بلا تشخيص.
بلا تشخيص؟
ياالله.. بلا تشخيص في تشخيص.
تكتك..
بدور! بدور!».

بدور: سلامتك يا ابن عمّي.

المهرج: متى نكون نشخّص ومتى ننطلق على سجيًتنا؟

بدور: اعتصم بالصبر، يا ابن عمّي.

المهرج: بدور!
متى كانت عصمتنا في أيدينا؟

بدور: ستكون يا ابن عمّي.

المهرج: بدور!
أتعلمين لماذا أحجم أجدادنا عن تعاطي الفنّ المسرحي؟ عن التشخيص؟

بدور: قالوا أصحاب الدِّين – يا ربّي – الدَيْن.

المهرج: بل لأنهم ارتدَوا ثياب المسرح طول حياتهم.
عاشوا مشخّصين.
ظهروا أمام السادة بأقنعة التشخيص.
فبأي شكل يظهرون على المسرح؟

بدور: ستريتيز. عُراة!

المهرج: حين عرَّوهم تقرمطوا، يا بدور.
عاشوا عُراة.
قلبوا الأرض عُراة.
قبّلوا جراحهم العارية.
غطّوا وراء اللؤلؤ عُراة.
ناموا عُراة إلاّ من أحلامهم.
ثاروا عُراة إلاّ من هاماتهم.
أكلوا الصخر العاري.
ولكنهم حافظوا على قاماتهم منتصبة.
هاماتهم شامخة.
ناسًا. بشرًا – بني آدم!
صُلبوا منتصبي القامة، عُراة.
مُنتصبي القامة، عُراة.
عالين!
فاعترى الصالبين الفزع. فملأوا الوديان بالصلبان
ورؤوس الجبال.
حتى إذا جاء الصليبيون بالصليب وجدوا هذه
النبتة
أصبحت حرّة في بلادنا.
بريّة في بلادنا.

عُلَّيقًا منتشرًا في الجبال والوديان.
عراقيل أمام تقدم الدبّابات.
أسلاكًا شائكة مكهربة.
أحراشًا كثيفة تحتضن الثوّار
تستر الثوّار
غابات من الهامات.
فغرقوا في وادي الصليب.
غرقوا في وادي الصليب.
خفّف الوطء وتنفّس الصعداء!
الأرض أضرحة
والهواء أضرحة.
أضرحة لا تُنبش
النسمة آثارنا. فتنفّس الصعداء.
شهيق. زفير.
شهيق. زفير.
أُولئك آبائي. أجدادي.
علوّ في الحياة وفي الممات.
لا إحدى المعجزات ولا مُعجزة.
لا اختيار!
جئنا بشرًا ونمضي بشرًا.

لـم نخيَّر.
وإذا خُيِّرنا، هل نختار، أن نولد خنازير؟!

بدور: خذني معك. أعود إليك.
لن أتركك.
خذني معك!

المهرج: إلا ذلك القرمطي المرتدّ.
المارق. الجبان. المدلّل!
قال: الرأي قبل شجاعة الشجعان،
فإذا هما اجتمعا بنفس حرّة
بلغت من الدنيا أعزّ مكان..
طُزّ..!
وطلاب أي مكان، مكان تحت الشمس؟
نفوس حرّة لا يجتمع بها سوى القهر والغربة،
الغربة في كل مكان!
هنود القرن العشرين الحمر
يا لذوي القربى!
إلى أين يرتدّون؟

بدور: «طلع بدر..
أورق بدر..
اكتمل بدر..»

المهرج: إلى أين ترتدّ الكثرة المسحوقة؟
كيف تتكتك؟
حتى اللبوات الأسيرة في السيرك تُتكتك.
توفر لحم مدربها فيطعمها جيفة.
أما لبواتنا الحبيسة فلا مكان لها حتى ولا في السِّرك!
يا لذوي القربى وأبناء عمّهم!
هل أبقوا لها من طعام سوى لحومهم؟
إلى أين ترتدّ الكثرة المسحوقة؟

بدور: وابدراه! يا ولداه!
قم بدر.
أطلعْ بدرًا.
أنطقْ صخرًا.
حرِّكْ ضميرًا.
أتسمعه يا نجيب محفوظ؟
يا مرتدًّا إلى أرذل العمر،
إلى ما بين القصرين؟

المهرج: إلى أين يرتدّ الذين إما أن يعيشوا وإما أن لا يعيشوا؟

بدور: غرِّدْ بدر.

أطلعْ بدرًا.
أنطقْ صخرًا.
حرِّكْ ضميرًا.
أتسمعه يا توفيق الحكيم؟
أيها العصفور المقعد في مزبلة شرقيّة.

المهرج: إلى أين؟ إلى أين؟.

بدور: إزأرْ بدر.
أطلعْ بدرًا.
أنطقْ صخرًا.
حرِّكْ ضميرًا.
أتسمعه يا لويس عوض؟ يا فيلسوف الخوف؟
ماذا تقول؟

صوت: أقول: إن نجيب محفوظ خائف. وهذا ليس رأيه. ولكنه، كتوفيق الحكيم، يحمي نفسه من عدوان الدولة، كي يمنحنا فنًّا جميلاً (*)

بدور: طاقات من الزهور الاصطناعيّة
فوق أضرحة من الرُّخام.
إن ضريح بدر دائم الخُضرة.

المهرج: والمسحوقون! الكثرة.
كيف ينقذهم الخوف؟

الفنانون الذين يمنحوننا المسكن، يشيِّدونه حجرًا حجرًا،
ويحطبون الصخر،
الفنانون الذين يمنحوننا الغذاء
ويجوعون.
يمنحوننا الكساء
ويعرون!
ماذا ينفعهم الخوف من عدوان الدولة؟

بدور: ألم يكفك، يا لويس، ستة عشر لويسًا؟

المهرج: مسلوب اللقمة، الجائع،
يرى أطفاله يموتون جوعًا..
هل يمضي الوقت بين الرأي والشجاعة حتى يموت الطفل الأول؟
أو ينتظر حتى يموت الطفل الثاني؟
أو ينتظر حتى يموت الطفل الثالث؟
أو ينتظر حتى يموتوا جميعًا؟!

بدور: الفن جميل.. (وتلفظها بالجيم المصريّة).

المهرج: ومسلوب الأرض والوطن!
هل يقعد في الفسحة بين الرأي والشجاعة حتى تضع الحرب الصليبية أوزارها،

ويستيقظ الضمير؟!

بدور: خازوق. خازوق.

المهرج: والمحمول على الأسِنَّة إلى الأُرجوحة!

على بساط أُرجواني يتأرجح بين الرأي والشجاعة؟

إلى أين يتراجع؟

إلى أين؟ إلى أين؟

(*) لويس عوض في صحيفة «السياسة» الكويتية، عدد ١٩٧٩/٣/٤.

(٥)

بدر!.. كلُّهم ولدي بدر!

وإذا بموسيقى كنيسيّة غيبيّة تندفع مثل موجة هادرة حتى تغرقنا في بحر من الغيبوبة. موجة تعطّرت برائحة البخور. ويكونون قد أحرقوه فتضوّعت رائحته المغيِّبة.

وإذا بحبال تُدلّى من سقف المسرح. كل حبل وفي نهايته أُنشوطة. وهي أشبه بحبال المشانق.

وتهرع بدور إلى المهرّج وهي مُشفقة عليه. ويَسْمَعها تهمس في أُذنه حتى نسمعها:

«حبال المشانق؟ حبال المشانق؟

هناك!

وهنا أيضًا؟!».

المهرج: رموز، يا بدور، مجرد رموز.

تتعدّد الأسباب والموت واحد.

حيّرني أمري.

فأي الرموز أختار؟

بدور: المقصلة!

المهرج: الشرق شرق والغرب غرب

ولـم نبلـغ، بعد، هـذا الشأو في المدنـيّة.

بدور: الصّلب!

المهرج: منذ أفغانستان أصبحت حروبهـم هلاليّة!

حيّرني أمرهـم.

بدور: الخازوق!

المهرج: لـم يعـد الخازوق رمزًا، يا بـدور.

أصبح الخازوق حياتنا اليوميّة.

بدور: والبلطة؟

المهرج: تتنافى والمدنيَّة..

والضمير الأعمى،

موت مكشوف!

ولـكنهـم لا يتعاطَون الموت المكشوف.

بدور: فكيف تُقتلون؟

المهرج: اختناقًا..

ملايين العناكب تنسج خيوطها حول رقابنا وأفواهنا وأُنوفنا.

يصبح التمطّي تهديمًا.

والتنفُّس استهانة بجمعيّات الرِّفق بالحيوان.

تلتهمنا الأكاذيب. تَفْري لحومنا عن عظامنا.

وأما الصحف الحرّة فتسلق هذه العظام حساء.

وحين تكون الدبّابة في حالة الدفاع عن نفسها
من حصى الأطفال،
نُقتل رميًا بالرصاص!
وقُتلنا، أيضًا، لمجرد سوء فهم..

بدور: حسبتهم ألغَوا عقوبة الإعدام.
رجالكم الإنسانيين – الواحة!

المهرج: وجدوها تثقل على ضمير المحكمة.
أغمضوا عيني الضمير ونفّذوها خارج القاعة.
حتى يظلّ ضمير القاتل نقيًّا.
القاتل ذو الضمير النقيّ!!
أرقى مستحدثات المدنيّة في القرن العشرين.
أرقى من الخيوط الاصطناعيّة ومن البلاستيك
ومن الكومبيوتر.
روبوث! روبوث!

بدور: ولكنهم يقتلوننا..

المهرج: خارج القاعة..
إن لهم في أرضكم الواسعة متّسعًا لهذا الأمر.
النهر طويل. والكمائن على الجانبين.
أقبية السجن معتمة.
والسجّان دولة.

السجّان پروفيسور.
السجّان مقتنع.
السجّان مرتاح الضمير.
الرصاصات الطائشة تصيب أهدافها
فيحشدون لجان التحقيق.
ويعتذرون.
يظلّ الضمير البلاستيك نقيًّا.
يحنو على أطفاله
ويحمل إلى زوجته طاقة زهور.
ويتذوّق الموسيقى.
ويناقشك في السپرنتيك
ويدافع عن بيكوفسكي.
أنزلوها عن ضمير أُوروپا، يا بدور،
وأنزلوها بكم بقانون غير مكتوب،
بقانون محفوظ على ظهر قلب،
اسمه الحرب هي الحرب!

بدور: حرب؟!

فتنطلق أصوات جوقة من الصبايا. صرخات حادّة كأنها أصوات العروس والأخوات يزغردن، معًا، لعودة الفارس قتيلاً:

«أُحصدوهم!
أُحصدوهم!
أُحصدوا!».

ويأتينا صوت المهرج وهو ينادي:
«عبد الله بن عبد الله، أبا عبد الله!
يا عبد الله!».

فيقبل عليه شاب في ربيع العمر، مشرق الوجه إشراقة فجر ربيعي على صخور شاطئ في بلادنا. ويبدو عاريًا إلاّ من ثوب مزنّد أحمر خفيف الحمرة، ضيِّق حتى يلتصق بجسمه يشدّ على تقاطيعه ومفاصله وكأنه عارٍ. وقد ولد بهذا الثوب أو أنهم أهملوا غسله في ساعة الميلاد أو أنه قد وُلد من جديد ويكون الشاب يهتف:
«لبَّيك، يا عمّاه. لبَّيك. لبَّيك».
المهرج: أقبلت، يا بُنَيّ، وأقبلت ساعة الحقيقة.

فتصرخ بدور:
«بدر؟! بدراه! ولدي بدر!»
المهرج: كلّهم بدر، يا بدور..

بدور: ولدي..

المهرج: كلّهم أولادك يا بدور.
تعالي نُخْلي له الساحة.
دعيه يتكلّم، هو نفسه!
تكلّم بدر!

الشاب: لبَّيك، يا عمّاه. لبَّيك. لبَّيك.

فيلتقط المهرج صَنْجَيْه. ويصفق بهما ثلاثًا وينادي:

«إِطفي النور. إِطفي النور.
الدور، الآن، على مسرور.
السيّاف مسرور!».

فيعمّ الظلام. فنسمع ضحكًا، أشبه بهدير الإبل، وجَلَبَة. ويأتينا صوت المهرّج وهو يقول:

«مسرور السيّاف جدًّا. مسرور جدًّا!».

وتتسلّل، من كوّة في طرف المسرح، حزمة ضوء فتنجلي الجلبة عن رجل سيّاف بسيفه المشرع. ولولا سيفه والنطع الذي يحمله في اليد الأُخرى ما كان من الممكن أن نعرف هذه المهنة التي يمتهنها. خصوصًا وأننا كنّا علمنا أن «مسرور»

الأُسطوريّ منهمك الآن في تعشيب الرياض.

فلباسه لا يطابق دوره في شيء: لباس السهرة الأُوروبّي الرسمي الأسود وقبّعة سوداء مربعة الأطراف يعتمرها فوق رأسه. وأما الحذاء فأسود شديد اللمعان. إن هذا السيّاف - يا للروعة - خرّيج جامعيّ ولا يفوتنا، بالطبع، هذا التخريج.

ويكون السيّاف، الخريج الجامعيّ، يلاعب سيفه ويفرش على الأرض، باليد الأُخرى، النَّطع المخضّب بالدماء.

كيف يكون النَّطع؟

هل فرشوه فوق شمس الرياض؟

سمعنا عن العباءة التي أرادوا أن يُخفوا بها عين الشمس. ورأينا، على الشاشتين، بساط الريح والبساط الأحمر الذي يفرشونه تحت أقدام ملوك وأُمراء وشيوخ ورؤساء. وفي بيوتنا تعشَّينا على الحصير ونمنا على الحصير. والنفس الحرّة، كما تعلمون، تنام على البُرش ولا تتأرجح إلاّ على الأُرجوحة الحمراء. وذلك لأنها لم تُخلق لكي تمنحنا «الفن الجميل». خُلقت، يا للهول، لمجرد أن تعيش!

فأيًّا منها اختاروا نطعًا مخضّبًا بالدماء: العباءة التي لم تخفِ عين الشمس، بساط الريح، البساط الأحمر، الحصير أو البرش؟

لا هذا ولا ذاك مما ذكرنا. بل اختاروا، نَطعًا، خرقة قديمة بالية وهَلّة، خرقة من الخيش، اخترقتها فتحات الزمن في

وسطها وفي أطرافها. خرقة حمراء متراكمة الحمرة، طبقات طبقات. ولولا أنها ترمز إلى النَّطْع لحسبنا أنها خرقة ممسحة أحضرها أحدهم من بيت جدته.

على رِسْلِكم! لماذا سمّوا الجدّة جدّة؟ ألأنها تظلّ تمسح، بالممسحة، الأرض والجدران ومتاع البيت حتى تعود إلى البيت جِدّته؟ فلماذا، إذا كان هذا التأويل صحيحًا، لم يسمّوا الزوجة جَدّة والبنت والعمّة والأرمل؟

ما لنا!

أما السيّاف، السموكن، فبعد أن يكون قد نحر المهرّج وبدورَ فانتحيا مكانًا قصيًّا، نراه يفرش النطع الخِرقة بينه وبين الشاب الربيعيّ حتى يقفا عليه وجهًا لوجه.

ويجري بينهما هذا الحوار:

السيّاف: اسمك؟

الشاب: ربيع.

السيّاف: اسمك الذي وُلدت به؟

الشاب: وُلدت بلا اسم.

السيّاف: اسمك الحركيّ؟

الشاب: شعب.

السيّاف: اسمك كلب!

الشاب: حقّ التسمية للوالدين.

السيّاف : أنت كلب!

الشاب : لم أختر هُويّتي.

وإذا اخترتها ما غيّرت.

السيّاف : اِمشِ على أربع يا كلب!

الشاب : لم تُعوِّدني أُمّي.

السيّاف : اِعوِ عواء الكلب!

الشاب : حتى ولا الأنين!

السيّاف : تلوح عليك إِمارات العِلْم.

الشاب : لا أجهلك.

السيّاف : وأنا عالم.

الشاب : ما أجهلك!

السيّاف : بيَدي أن أُركِّعك.

الشاب : أقوم وأقف.

السيّاف : سأُوجعك. أقتلع أظافرك.

الشاب : قد فعلت..

السيّاف : الرأي يا بُنَيّ..

الشاب : لست ابنك.

السيّاف : الرأي قبل شجاعة الشجعان.

الشاب : الشجاعة رأيي.

السيّاف : صغير أنت. لم تدمن، بعد، عِلى لذّة الحياة

يا ربيع.

الشاب: ولا على المذلّة.

السيّاف: لنتفاوض.

الشاب: النَّطْع ليس للمفاوضة. سيّاف ومسيّف.

السيّاف: هل من بديل؟

الشاب: اِطوِ النطع وأَغمد السيف!

السيّاف: وسيفي؟

الشاب: نصكّه محراثًا.

السيّاف: ودبّابتي؟

الشاب: نرجعها تركتورًا.

السيّاف: وطائرتي؟

الشاب: نرشّ بها المبيدات.

السيّاف: وأمريكي؟

الشاب: ننكحه سويةً.

السيّاف: شيوعي!

الشاب: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أُمهاتهم أحرارًا؟!(*)

السيّاف: شيعيّ!

الشاب: عجبت لمن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج إلى الناس شاهرًا سيفه!(**)

السيّاف : عميل!

الشاب : عامل!

السيّاف : موسكو!

الشاب : لم نعد وحدنا.

السيّاف : ألا تحب الحياة؟

الشاب : حتى الموت!

السيّاف : ما أهون الموت عليكم!

الشاب : ما أهون القتل عليك!

السيّاف : مخرّب!

الشاب : أُحب أُمّي وأُحب حبيبتي وأُحب الشّعر.

السيّاف : ورثت النقمة!

الشاب : ورثت رائحة البحر.

السيّاف : غيره؟

الشاب : وحكايات أبي.

السيّاف : مخرّب! ماذا تريد؟

الشاب : أتوق إلى الطمأنينة.

السيّاف : غيره؟

الشاب : وحديقة.

السيّاف : وغيره؟

الشاب : والنوم على هدير الموج

وزخّ المطر
لا على زخّ القنابل.
السيّاف: مخرّب! ماذا يعشش في رأسك المحموم؟
الشاب: أن أعيش في وطني.
أن أكون كغيري من خلق الله.
أن لا يقولوا عنّي غريب.
مشرّد، لاجئ.
أن لا أتسلّل إلى وطني.
السيّاف: لا تتسلّل!
الشاب: جئت كي لا أتسلّل!
السيّاف: أنت تكرهنا!
الشاب: أنت تكرهنا!
السيّاف: يتعاظم كرهكم إيّانا!
الشاب: يتعاظم كرهك إيّانا!
السيّاف: يا قاتل الأطفال. منتقم!
ألم يكن والدك من كفر قاسم؟
بدور: جريمة؟
السيّاف: فمن دير ياسين؟
بدور: جريمة؟
السيّاف: فمن الرملة، من اللد، من يافا،

من صفد، من عيلبون، من عيلوط.

بدور: عدّاً عدّاً!

السيّاف: كثيراً كثيراً!

إما هو أو والده!

إن لم يكن والدك فجدّك. فعمّك فابن عمّك!

أحدهم!

أحدهم!

ريڤانج! ريڤانج! ريڤانجست!

لو كنّا مكانكم..

الشاب: لن نكون مكانك مهما يحدث من أمر.

السيّاف: أترضى عن قتل الأطفال؟

الشاب: أنا الطفل القتيل..

السيّاف: وأطفالنا؟

الشاب: وأطفالكم..

السيّاف: أيها القتلة..

الشاب: أيُقتل القتيل مرة ثانية؟!

فينفجر السيّاف في قهقهة كأنها القرع على صفائح فارغة.
ويكون يردِّد بين القهقهة وأُختها:
«بِتَياستكم! بِتَياستكم!».

(*) من أقوال عمر بن الخطاب المأثورة.
(**) من أقوال أبي ذرّ الغِفاري المأثورة.

(٦)

مأدبة شُواء

وتتناسخ القهقهة مع أصوات صادرة عن قرع طبول، أشبه بالرعد في آذار. ثم تنشقّ السماء عن بريق يغشى الأبصار فنرى المشخِّصين يتّقونه بأكفّهم على عيونهم استكفافًا.

ويهتف هاتف في مكبِّرات الصوت أن:

«غُضّوا أبصاركم، يا أهل الموقف، حتى يعبر الهول الأكبر!».

فيفعلون.

أما السيّاف فيَسْجد للسيف أمامه. وأما المسيّف والمهرّج وبدور فيتحاضنون ورؤوسهم خاشعة.

ويعقب البرق ظلام أشدّ سوادًا من حنك الغراب.

فيسود صمت حتى لا نسمع سوى صوت الصمت. ويعمّ ظلام حتى لا نرى سوى أخيلة الموت.

وإذا بصوت خبطة على المسرح تصدر عن ارتطام جسم إنسان يُلقى على الأرض من عَلٍ. نسمع ونفهم ولكن لا نراه. فخبطة ثانية. فثالثة. وما أن نُحصي ثلاثًا حتى يأتينا صوت

الخبطة الرابعة. فلا تختلف في شيء عن أخواتها، لا في صوت ولا في موت.

ويفجّ النور السماويّ.

فنرى، والدهشة تعقد ألسنتنا، أربعة شبان متساوي الأعمار ومتشابهي الخِلقة والخُلْقان. وتكون هذه ثيابًا بيضاء مرسلة تحرّقت أطرافها واكتست بالسخام. ونرى فوق كتفي الشاب منهم جناحي ملك. وتكون أطراف الجناح، أيضًا، قد تحرَّقت واكتست بالسُّخام.

وينشغل ثلاثة من الملائكة – وهم المتقدمون في الارتطام – في نفض السُّخام عن أثوابهم البيضاء وفي تمكين الأجنحة من أكتافهم. ونعلم، فيما بعد، أن أسماءهم هي، بحسب الأولويّة في الارتطام: سعدي أبو شارب وسعيد أبو شاربين وسعادة شارب الدم.

وأما رابعهم، ونعلم فيما بعد أن اسمه سعادية قلب الأسد، فيكون يحمل سَفُّودًا وينادي:

«ساسليك! ساسليك!».

أبو شاربين: كيف لحق هذا بنا إلى هنا؟

أبو شارب: أحرقوه معنا خطأً.

شارب الدم: أخ..

أبو شاربين: يكونون أحرقوه تدبيرًا حتى يكون علينا عَيْنًا.

قلب الأسد: ساسليك! ساسليك!

أبو شارب: على ماذا ينادي؟

أبو شاربين: شاشليك! ساسليك بلهجة المغرب.
يبيع شواء. لحمًا مشويًّا.

أبو شارب: أشمّ رائحة شِواء ولا أرى لحمًا.

قلب الأسد: ساسليك! ساسليك!

أبو شارب: ماذا تبيع، يا أخ؟

شارب الدم: أخ؟.. أخ!

قلب الأسد: أبيع لحمًا مشويًّا.
ساسليك! ساسليك!

أبو شارب: لحمك أم لحمنا؟

قلب الأسد: على الأرض ما كنت أبيع سوى لحمي.
وابنتي كانت تبيع لحمها.
هل تشعرون بفرق في الرائحة؟
ساسليك! ساسليك!

شارب الدم: أخ..

أبو شارب: لكنني لا أرى لحمًا!

قلب الأسد: لأننا موجودون، الآن، فيما وراء الحياة الدنيا.
روح!
والروح لا تُرى بالعين المجرّدة.

ولحمي روح. روح اللحم.
وكان من الصعب رؤيته، أيضًا، على الأرض.
ساسليك! ساسليك!

أبو شارب: لماذا أحرقوك معنا؟

شارب الدم: أخ..

قلب الأسد: كلّه على العرب قُطّين.
أنتم سُمر وأنا أسمر.
أنتم للحرق وأنا أحترق.
ساسليك! ساسليك!

أبو شاربين: نحن عائدون..

شارب الدم: عائد؟! أخ..

قلب الأسد: وأنا عائد..
ساسليك! ساسليك!

أبو شارب: لماذا لم تبقَ في مسقط رأسك؟

شارب الدم: يبقى؟! أخ..

قلب الأسد: طردني العرب..

أبو شاربين: ونحن طردنا العرب..

قلب الأسد: ساسليك. ساسليك.

شارب الدم: طردوكم؟! أخ..

أبو شارب: أهلك قتلونا..

قلب الأسد: وأنا أيضاً..

ساسليك. ساسليك.

شارب الدم: أخ..

أبو شاربين: أهلنا لا يقتلون سوانا.

قلب الأسد: وأنا أيضاً..

ساسليك. ساسليك.

شارب الدم: لا يقتلون سواكم؟! أخ..

أبو شاربين: ما اسمك؟

قلب الأسد: سعادية.

أبو شارب: وأنا سعدي.

أبو شاربين: وأنا سعيد.

شارب الدم: أخ..!

قلب الأسد: تشرّفنا يا أخ.

ساسليك؟

شارب الدم: أخ؟

أخ!

أبو شاربين: كفى أخأخَة يا سعادة.

شارب الدم: أقتله ويسمّيني أخ؟!

وقاحة! إهانة. قال: أخ!

أخ..!

فتعرو الدهشة سحابة وجه سعادية قلب الأسد.

أبو شارب: أنت قتلته، يا سعادة؟
يا قتيل ابن القتيل؟
حتى في الدار الآخرة تزيّد علينا؟
طيّب! إذن أنا قتلته!

أبو شاربين: عيني يا عيني! وأنا؟
إذا كنت أنت قتلته مرّة فأنا قتلته مرّتين!

شارب الدم: ثلاثًا! قتلته ثلاثًا!
بالطلاق بالثلاث!

وإذا بغمامة الدهشة تعبر عن وجه سعادية، عبور غمامة صيف. ويصحو وجهه على أمارات الحكمة فيضع سَبَّابته على صَدْغه في حركة أرخميديسيّة أصيلة، نحاول، نحن الجالسين تحت – أي في القاعة – أن نُحاكيه فيها، فلا تزيد غباءنا إلاّ غباوة. فنتكتّف صابرين فيما يكون اقتتال الأُخوة مستعر الأُوار.

وإذا بسعادية يصرخ:

«القتلة! القتلة!
أغيثوني يا أهل الموقف!

قتلتني القتلة!».

فتُقبل جارية من خدم الجِنان تهرول منزعجة وفي يدها مكنسة منفضة تلوّح بها.

الجارية: أسمع عِياطًا وأرى مِياطًا.
ألا تعلمون أن اليوم عطلة؟!

الجميع: عطلة؟!

الجارية: عيد ميلاد سيدنا إبراهيم عليه السلام.

قلب الأسد: جدّي إبراهيم!

شارب الدم وأبو شارب: بل جدّنا إبراهيم!

أبو شاربين: أخ..!

قلب الأسد: جدّي..

أبو شارب: جدّ جدّي..

شارب الدم: جدّ جدّ جدّي..

أبو شاربين: أخ..!

الجارية: هوپ.. كفى!
وأنت! ماذا يؤخئخك؟

أبو شاربين: بلغم. بلغم. برم. بق. بق. بضم. بغم.
غم. غم. غو. غو.

الجارية: الله يبعث.. اِرجع غداً.
غداً. يالله..
قلب الأسد: البركة فيكِ، يا ستّ الحسن.
فاقضي بيننا يا حلو..

فتضحك الجارية وتختال دلالاً.

الجارية: يا حلو..
أبو شارب: أنا أحلى..
أبو شاربين: يمين!
شارب الدم: قومية المعركة!

ويتكشّف سعادة وهو مشمئزّ.

الجارية: معارك؟ في الدار الآخرة؟
وحوش!
قلب الأسد: اِقضي بيننا، يا حلو!
الجارية: سلّموا سلاحكم الأبيض، أولاً.
ثم أقضي بينكم.
اِخلع! اِخلع! اِخلع!

أبو شارب: نخلع؟
الجارية: سراويلكم!
اِخلع! اِخلع!

فيخلع سعدي أبو شارب سرواله. ويلتفت إلى صاحبه ويقول:
أبو شارب: احتطتُ للأمر فأتزرت بسروالين.
الجارية: وأنت! اِخلع! اِخلع!

فيخلع سعيد أبو شاربين سرواله ويلتفت إلى صاحبه ويقول:
أبو شاربين: احتطتُ للأمر. فأتزرت بثلاثة سراويل!
الجارية: وأنت! اِخلع!

ولكن سعادة شارب الدم يظلّ متكتّفًا ومتعاليًا.

الجارية: اِخلع! اِخلع!
شارب الدم: لن أخلع!
الجارية: اِخلع أو أخلعه بيدي لا بيدك يا عمرو!
شارب الدم: أي شيء أخلع؟
الجارية: سروالك يا أخ..
شارب الدم: السروال المخلوع لا يُخلع.

تحتي عارٍ كما خلقني ربّي.
لا يوجد تحت هذا اللباس أيّ لباس.
وسروالي محفوظ في البيت بالنفتالين.

فيغشى على الجارية من شدّة الضحك.

الجارية: هل أرى؟
أتسمح لي أن أتحسّسك؟
أسبر قعرك؟

وتهمّ الجارية به وهي تدغدغه. فيفلت منها وهو يهمس:
«بالسرّ يا أُورو..
خفية عن أعين الرقباء..
بالسرّ يا أم أم!».

وتراوده الجارية وهي تصوّب مكنستها نحو مؤخرته. فيفرّ من أمامها. فيدوران في دائرة نصف قطرها عصا المكنسة وذراع الجارية، بالحدّ الأدنى. وتلفّ وتدور. وهكذا دوالَيك وإلى آخره حتى يبدو الإعياء على وجه الجارية. فتعود إلى سعادية قلب الأسد ويكون يسفّد بِسَفُّوده.

الجارية: ما هذا، يا حلو؟

قلب الأسد: سَفُّود.

الجارية: سلاح؟

قلب الأسد: ولكنه يختلف عن السراويل بأنه غير عُدوانيّ.
أُدافع به عن نفسي.

الجارية: دفاعيّ، يا حلو؟

قلب الأسد: أشوِي به لحمًا وأقتات به.
ولنا فيه، أنت وأنا، مآرب أُخرى.
ساسْليك، يا حلو؟

الجارية: هات.

قلب الأسد: هات.

الجارية: هات؟

قلب الأسد: هات وخُذ، يا حلو. خُذ وهات.

الجارية: طيّب. هات.

قلب الأسد: هات حكمًا، يا حلو.
اقضي بيننا.

الجارية: تكرم عينك.

فتقلب الجارية عصا مكنستها على قفاها. أي على قفا العصا. وتضمّ ما بين حاجبيها مُلقيِة الهَيبة. وتفرج ما بين رجليها

مفحّجة للقضاء بينهم.

الجارية: اسمك؟

أبو شارب: سعدي أبو شارب.

الجارية: أبو شارب؟

أبو شارب: الاسم الحركي.

الجارية: ليش؟

أبو شارب: لم تكن شواربنا قد طرت بعد.
فظنّوا أننا لا نموت إلاّ بشلل الأطفال.
فأرسلناها كشفًا لهُويّة موتنا.

الجارية: فبماذا تموتون؟

أبو شارب: بالرصاص..

الجارية: وأنت، ما اسمك؟

أبو شاربين: سعيد أبو شاربين.

الجارية: أبو شاربين؟ الاسم الحركي؟

أبو شاربين: الاسم الطبقي.

الجارية: ليش؟

أبو شاربين: قرأوا لنا أنه، كي نتّحد، علينا أن نبدأ بتحديد نقاط الاختلاف.

الجارية: بالشوارب؟

أبو شاربين: لم نجد اختلافات أُخرى.

الجارية: عفارم. فهل اتّحدتم؟

أبو شاربين: الحقّ عليه.

أبو شارب: بل عليك.

أبو شاربين: عليك!

أبو شارب: عليك!

وينتقلان من الصراخ إلى المرافعة بالأيدي. فَتَحُول الجارية بينهما وهي تصرخ:

«هوپ! هوپ!

مشاغبون! حتى في الحشر تعكّرون صفو الموت!».

ثم تتحوّل نحو ثالثهم.

الجارية: وحضرة الجناب؟

شارب الدم: سعادة شارب الدم!

الجارية: هو، هو.. الاسم الحركيّ؟

شارب الدم: لا!

الجارية: الطبقيّ؟

شارب الدم: لا!

الجارية: إذن؟

شارب الدم: اسم السترة.. الله يسترك!

فتستغرق الجارية في الضحك. وتهمّ برفع ثوبه عن ساقيه بطرف مكنستها. فيشدّه إلى أسفل وهو يتمتم:

«يُستر على عرضِك».

الجارية: هل يستر؟

شارب الدم: يستر.. يستر..

الجارية: فإذا هتكوا هذا الستر؟

شارب الدم: لا نعدم أستارًا أُخرى!

غِبَّ الطلب!

سِدّة ملآنة!

الجارية: هات يا سبع!

شارب الدم: الجليل قبل الجولان!

قلب الأسد: حصل..

الجارية: فوق.. فوق!

شارب الدم: الجليل كالخليل!

قلب الأسد: حصل..

الجارية: دي. دي. دي. دي!

شارب الدم: لا نرضى بأقل من استعادة الأندلس!

الجارية: عليهم..!

شارب الدم: قَوميّة المعركة!

قلب الأسد: يا أُمّاه..

فتنتبه إلى سعادية قلب الأسد.

الجارية: وأنت، يا حلو؟

قلب الأسد: وحيد مسكين. حَيران..

الجارية: اسمك؟

قلب الأسد: سعادية قلب الأسد.

الجارية: قلب الأسد؟ الاسم الحركيّ؟

قلب الأسد: لا.

الجارية: الطبقيّ؟

قلب الأسد: لا.

الجارية: اسم السترة، يا حلو؟

قلب الأسد: لا.

الجارية: إذن؟

قلب الأسد: الاسم القوميّ..

الجارية: قلب الأسد مرّة واحدة؟

من بطن أُمّك؟

من المغرب؟

قلب الأسد: لا، والله، يا ستّ الحسن.

أنا صادق.

اسم عائلتنا الأصليّ شلباطو.

ولكننا نختار..

أرض الله واسعة!

أوطان كثير. لغات كثير.

والأخرالوجيا..

الجارية: أخرا؟.. هنا؟

من؟ أنت؟

وفي الدار الآخرة؟

قلب الأسد: آثار.. علم الآثار، يا حلو!

ننبش الأرض فنجد.

انبشوا تجدوا.

الجارية: عمّن تنبشون؟

قلب الأسد: عن جدودنا.

الجارية: هل وجدتم؟

قلب الأسد: عظام كثير. جماجم كثير.

أضرحة. مَدَنِيّة. قديمة. عريقة.

سيف يمانيّ.

أسوار.

زريبة.

جدودنا.

مخازن عدس! برغل!

الثلاثة: عدس؟ برغل؟

إذن جدودنا!

قلب الأسد: اِلحقيني، يا ستّ الحسن.

ينبشون القبور.

يلاحقونني على الأجداد..

العظام! الجماجم!

المدنيّة!

لا يحترمون الأموات!

وإذ بالسماء يشقّها بريق يُغشي على الأبصار. فيتحاشاه سعادية قلب الأسد والجارية مُدْبِرَين. وأما الثلاثة الآخرون فيجهشون بالبكاء إما عن فيض من الأمل وإمّا عن فيض من الألم.

وفيما يكونون على هذه الحال تتردّد في أنحاء الموقف زغاريد صبايا ونِسْوة. وتنطلق آهات. ثم تأتينا أصوات

أُنثويّة ضارعة:

صوت فتاة: برأس أُمك، يا خواجة، تتركنا نعود إلى القرية!

صوت فتاة ثانية: أبوس يدك، يا خواجة، خلّني لأطفالي!

صوت فتاة ثالثة: يخلّي للك شبابك تخلّي لي شبابي..

ولكن، سرعان ما تستعيد الجارية رباطة جأشها. فتستدير نحو النور السماوي وتصرخ:

الجارية: هوب! هوپ!
نظام!

قلب الأسد: نظام!

الجارية: اليوم عطلة - عيد!
الذي فات مات.
يالله..

فلا يلبث النور حتى ينسحب إباءً وشَمَمًا واحتجاجًا.

وتعود الجارية إلى سعادية قلب الأسد وهي مرتاحة الضمير.

الجارية: وجدودي، يا حلو، هل وجدت لهم أثرًا؟

قلب الأسد: حتى أهرام خوفو!

الجارية: ولّ! صحيح؟

قلب الأسد: طبعًا!

الأخرالوجيا أثبتت أننا بنيناه بأيدينا..

الجارية: جدودكم. فأين جدودنا؟

قلب الأسد: بسيطة.. نحمل الأمر على محمل الحاضر.

بما أننا نخدمكم الآن، إذن، فجدودنا خدموا جدودكم.

إذا كنّا نحمل الحاضر على محمل الماضي فلماذا لا نعكسها؟

كلّه عظام وجماجم.

ساسْليكْ، يا حلو؟

الجارية: بترول، يا حلو!

قلب الأسد: أيضًا بسيطة.

أرسليني إلى بئر خليجيّة حتى تختلج الروح في صدري.

فأموت فدا عينيك يا حلو..

ثم تفعل الأخرالوجيا فعلها.

الجارية: تموت ميتة ثانية؟ غير ممكن!

قلب الأسد: ممكن، يا حلو.

فعلتموها ففعلناها.

قتلتنا مدنيّتكم.

ونموت في سبيل مدنيّتكم.

لِيحيَ وطن الآباء والأجداد.
لتحيَ العظام والجماجم والبترول!

الجارية: وهؤلاء. ماذا فعلوا؟

قلب الأسد: قتلوني يا حلو!

الجارية: ولكنهم قتلى هم أنفسهم؟!

قلب الأسد: هكذا شُبِّه لي حتى سمعتهم يقتتلون فيما بينهم
على أنهم قاتلي!
أُقتليهم!

الجارية: أيُقتل القتيل مرّة ثانية؟
ويصدّق أهل السماء هذه الفِرْية؟

قلب الأسد: صدَّقوها. من زمان صدَّقوها.
صدَّقوها حتى وهم في الدار الفانية.
سألوهم فأجابوا.
هم فعلوها!
اِسأليهم!

فتتحوّل الجارية إليهم فيتدافعون نحوها للوقوف صفًّا واحدًا.

وإذا بأصوات أقدام تُهَرْوِل في مؤخرة المسرح. ونسمع صوت المهرّج وهو يصيح: «كفى! كفى!» فنهبط، في طَرفة عين، من السماء إلى الأرض. فنتذكّر أننا ما زلنا على هذه الأرض.

على هذه الأرض. فيدهمنا قلق الحقيقة.

وتنجلي الجلبة عن المهرّج وهو يدفع بصندوقه ويصيح:

«كفى! كفى!

القتيل لا يُقتل مرّة ثانية!

القتيل يتكلم صمتًا.

صمتًا لا يمكن إسكاته!

صمتًا لا يسبر غَوْرَه سوى القاتل!

دعوا الأُم الثكلى تتكلم!».

صوت بدور: بدر!

صوت امرأة أخرى: سعادية!

ويُقبل صِبْيَة وصبايا يحملون المكانس. ويأخذون

في كنس الخشبة أو أرض المسرح. والمهرّج يقول:

عودوا، يا أولادي، إلى مقاعدكم.

أنت يا سعدي وسعيد وسعادة.

الثلاثة: يقتلوننا بالتسلّل!

المهرج: تشخيص، يا أولادي، تشخيص.

عودوا ولا تقتتلوا.

قلب الأسد: وأنا؟

المهرج: مكانك محفوظ، يا بُنَيّ.

فاحفظ لغيرك غيره!

قلب الأسد: يرسلونني إلى الجبهة.

المهرج: تشخيص، يا بُنَيّ، تشخيص.

عُد ولا تذهب!

الجارية: وأنا؟

المهرج: وأمّا أنت فلكِ الله وعباده!

ولولا أنه تشخيص في تشخيص لقايضتكِ

بالأرض السماء

مقابل أن تتركي الأرض لأهلها.

ولكن عودي!

تشخيص في تشخيص!

ويمضون. يتصدّرهم المهرج يتصدّره صندوقه. ونسمعه يقول:

«موعدنا القريب، أيها الجمع الحبيب، في الجلسة الثالثة والأخيرة. فلا بد أن يكون لهذا الأمر نهاية ولو على خشبة المسرح!».

ونسمعهم جميعًا يهتفون، وهم يغيبون عن أنظارنا:

«صندوق العجايب. الحاضر يعلم الغايب.

الحاضر يعلم الغايب».

ونظلّ جالسين في مقاعدنا ويمضي الكنّاسون في عملهم حتى نراهم يهمّون بأن يكنسونا نحن أيضاً. فنصفّق ونقف ونتحرّك. ونرى فريقًا منّا يصافح المشخّصين. فنرغب في مجاراتهم إلاّ أن تواضُعنا، أو نقيضه، يردُّنا عن هذا الأمر. ولا نعدم مُعلِّقين يعلّقون على ما شاهدوه، وشامتين ومستائين ويائسين. ولا نكون بينهم لأننا كنا قد عبرنا على ذلك كلّه.

الجلسة الثالثة والأخيرة

المهرِّج

« ويُسائِلون الليل عنكِ
وهم لعودك
في انتظار . . »

(بدر شاكر السيّاب)

(١)

راح زمان الأنتيكا، ولكن..

«من الضروري أن يكون لهذا الأمر نهاية حتى ولو على خشبة المسرح»..

حتى على خشبة المسرح سيكون من المثير، يا قشمر بن غمرة، أن نرى إلى نهاية هذا الأمر.

الاستراحة، بين الجلسة والجلسة، حركة وبرّ ونفاد صبر. حتى جارتي، التي لم تشأ أن تحرِّك نومة طفلها على يدها، في أثناء الجلسة، أراها تحرِّكه الآن وترسل يديها الحانيتين وتتنهّد بملء صدرها. ويكون لَغْط الصبيان والصبايا تغريد عصافير توقظ فجراً.

هل تعلم، يا قشمر بن غمرة، أن العصافير، في بلاد الجوف النؤوم الضّحى تغرد في جوف الليل؟

يكون الليل يتمطّى ويتثاءب. ويكون الليل يغطّ في النوم. وإذا بالعصافير تغرّد. يشرع في الزقزقة عصفور. يغرّد تغريد بلابل. هو بلبل أو كما أتخيّل تغريد البلبل. ثم يكفّ منتظراً أن يخجل فجر. فلا يخجل فجر! فيعود إلى تغريده مُهيبًا بإخوته أن يستيقظوا وأن يعينوه على إيقاظ فجر. فحتّى

طلائع الطبيعة تدرك أن الوحدة، ولو في قمم النُسور، لا تبدّد وحشة ليل.

فيلبّي التغريد مغرّد. فتنطلق جوقة. وتتفتّح أكمام من أغاريد. وتُحيّي الأعشاش على الفلاح الناس. فيخرج الصنّاع إلى صناعتهم. والشمس لا تشرق في فصل الشتاء هناك. وإذا أشرقت تباطأت ولم تسفر. تحجبها عن العيون غيوم ثلجيّة وسماء سخيّة. إلاّ أن العصفور المغرّد لا تنطلي عليه هذه الحيلة. ولا على الصانع ولا على الزارع. فيرون انجلاء العتمة فيما وراء الغيمة. فيغرِّدون. فيُؤْذن بفجر لا محالة.

فكيف بالفجر في بلادنا، حيث لا يتوانى الفجر الجديد عن تلبية نداء التّغريد ولا تتحجّب الشمس؟! فيا خالق ويا خلق، متى تشرق الشمس في هذا الشرق؟!

وما كان يزقزق عصفور في البلاد البعيدة ويصدح فجر على أغصان الغمام حتى أتذكر نومة ضحى ينفّرها نور شمس أو عصا جدّي – في بلادنا البعيدة – تحت عريشة في حقل من البطيخ والشمام. أو في كروم الدوالي. أو فوق مراتب التِّتن. وكنا نصدح، نحن أيضًا، ونقرقر. وكنّا ننتظر نهاية لهذا الأمر سنة دراسية أُخرى.

بلادي، يا بلادي!

كم زقزقنا لاستدرار فجر. وكم توقّعنا طلوع فجر.

وما زالت والدة أولادي، جدّة أحفادي، تعيّرني أنني لم أُمهرها سوى مَهْرٍ مؤجَّل خمس سنين: وعد، من قبل خمسة وثلاثين عامًا، بأن انجلاء هذا الليل لن يتأخر. وما هي إلاّ رمية سنوات خمس حتى يطلع فجرنا فأُراودها عن فترة التأجيل. وأدّعي أنها عشر سنين لا خمس. فتعاندني وأُعاندها حتى تنقضي ليلة أُخرى على صداق لم يصدق منذ ثلاثين عامًا.

بلادي، يا بلادي!

متى ينقضي هذا الأمر ويزول عنّا هذا القهر؟!

لقد شمَّست، في هذه الأثناء، مهور كثيرة في مشارق الأرض ومغاربها. وأخذنا أعراسهم عرسانًا. ولكن، أيّ عريس زفّوه إلى الثَّرَى لم نزفّ مثله؟ وأيّة ثريا بكت عليهم، نجومًا وكواكب، لم تبكِ علينا؟ فلماذا تثاقل ليلنا وأدار الفجر لنا ظهره؟

بلادي، يا بلادي!

لا تلوموا الضحيَّة!

كيف نلوم الضحيَّة؟ نحن الضحيَّة!

حتى على خشبة المسرح سيكون من المثير، يا قشمر بن غمرة، أن نرى إلى نهاية هذا الأمر وإلى طلوع هذا الفجر.

بلادي، يا بلادي!

وفيما نكون على هذه الحالة من النوسطالجيا، ومن الريب

بقدرة الصندوق على كشف الغيب، متأرجحين بين الصداع والصداح والحنين إلى ليالي الصيف المِلاح. .

. . إذا بالمهرّج يُقبل علينا وهو يدفع بصندوقه. وتظهر بدور وراءه. ويحتشد وراءهما حشد من الصِّبْية والصبايا تقودهم صَبِيّة تتمنطق بطبلة وتُنطقها، نقرًا، نغمًا رتيبًا.

ويكون الآخرون يصفّقون على النغم وينشدون النشيد:

النشيد: طبّل. طبّل. مزّيكا.
راح زمان الأنتيكا.
أُصمد. أصمد. ما فيكا.
راح زمان الأنتيكا.
اِحمي وطنًا يحميكَ.
راح زمان الأنتيكا.
فتّح. فتّح عينيكَ.
راح زمان الأنتيكا.
طبّل. طبّل. مزيكا.
راح زمان الأنتيكا.

وتجلس بدور على مقعد الصندوق. وتتكتّف وأمارات نفاد الصبر بادية على محيَّاها. ويقف المهرّج وراءها، والصندوق بينهما، يهمّ بالكلام. إلاّ أن المنشدين لا يكفّون عن إنشادهم.

ونراهم يطوّقون بدورَ والمهرّج، وبينهما صندوق العجايب، في دائرة من الراقصين والراقصات، المنشدين والمنشدات، وعلى رأسهم الصبيّة الطبّالة. وتكون الصبيّة تنقر على طبلتها. ويكونون يرقصون ويدورون في الحلقة مردّدين القرار بإصرار، فيما يقومون بحركات استهزائيّة، بأصابعهم على أُنوفهم أو على آذانهم، يريدون بها الاستخفاف ببدور وبالمهرج وبجيلهما كلّه.

ويصفق المهرّج بصَنْجَيْه. وأما بدور فتظلّ على حالها مقيمة.

حتى يضيق المهرّج ذرعًا بهم. فيروح ويجيء في وسطهم ويقطع الحلقة عليهم، عرضاً وعمقًا. فينتحون، غير متفرّقين، مكانًا قصيًّا. سوى الصبيّة الطبّالة التي نراها، على قِصَر قامتها ولين عودها، تواجه المهرج وتتحدّاه. وتنقر على الطبلة وتنشد في عناد:

«راح زمان الأنتيكا.
راح زمان الأنتيكا».

ثم تجهش في البكاء.

فيتلطّف المهرج بها. ويحوطها بذراعه ويكفكف دموعها. ويقول، وعمر السامعين يطول:

المهرج: لا بأس. لا بأس يا صبيّة.
راح زمان الأنتيكا.
ولكن، ماذا جاء بعده؟

الجمع: زماننا..

الطبّالة: زماننا..

المهرج: راح زمان الأنتيكا.
يقيناً راح.
ولكن الأنتيكا لم ترح.
راح زمان الأنتيكا
وبقيت الأنتيكا.

الطبّالة: زماننا آخر.
زماننا جديد.

المهرج: نحن، أيضاً، في صبانا،
في زماننا..
أنشدنا هذا النشيد.
وكان زماننا جديداً.
ولكن، حين كبرنا،
أكلتنا الأنتيكا.
أكلتنا التراخوما.

بدور: بدر لا يشيخ!

المهرج: ولا شعب بدر، يا بدور.
لا يتركونه يشيخ!
أكلتنا الأنتيكا.
أكلتنا التراخوما.

ويأتينا، من رؤوس جبال بعيدة، قرع طبل أفريقي. فيردّ عليه طبل آخر. فيستجيب للنداء ثالث. فطبول. فغابة من طبول.

وتكفهرّ سماء. ويعمّ ظلام سوى ضوئين ينطلقان من عَيْنَي الصندوق. ونسمع جَلَبَة ولا نرى مصدرها. وإذا بالمهرّج يصفق بصَنْجَيْه ثم يقول:

المهرج: قُم تفرّج، يا سلام، على عجايب الزمان.
في أعماق أفريقيا الاستوائيّة،
على شاطئ النهر العظيم،
في شمالي غانا وڤولتا العليا
ومالي،
حيث تتراوح نسبة العميان بين عشرة وثلاثين
بالمئة،
تهجع قُرًى
جميع البالغين فيها مُصاب
بالعمى.

أكلتهم التراخوما.
والوحيدون، الذين تُبصر عيونهم،
هم الأطفال.
فإذا شبّوا على الطوق وكبروا،
أكلتهم التراخوما.

ويُضاء المسرح. فإذا ببدور على جلستها، وهي مُكتّفة لا تريم. ويقف وراءها المهرج وبينهما الصندوق. هذا في زاوية. وأما في الزاوية الأُخرى فنرى الصِّبْية والصبايا يفترشون الأرض في حلقة تتوسطها الصَبِيّة الطبّالة. وتكون الصبيّة تهمس في أُذن هذا الصبي ثم في أُذن تلك الصبيّة. فيهلّلون مرّة ويصفّقون مرّات. ويضحكون ويزقزقون ويغرّدون. ونسمع وشوشتهم كأنها خرير جدول جبليّ، حيناً، وكأنها حفيف الأشجار في دغيلة أفريقية مغلولة، أحياناً.

وأما في وسط المسرح فنرى رجالاً ونساءً. لهم عيون شاخصة ولكنهم لا يرون بعيونهم. عميان أكلتهم التراخوما. ويكونون يحملون، فيما بينهم، حبلاً مرساً طرفه الأخير في يد شيخ منهم يجلس القرفصاء على مرتبة عالية. ويعتمر هذا الشيخ، فوق رأسه، طرطوراً. وتكون سقيفة من نخيل تظلّلهما - الرأس والطرطور..

ويتقدّم الرجال والنساء نحو الشيخ المطرطَر، صفًّا واحداً. الواحد وراء الآخر. والهادي إلى الطريق الحبل المرس. ويبدو لنا أنهم تمرّسوا على هذا المسلك.

وفي آخر المطاف، وحين يدرك الواحد منهم طرف الحبل واليد التي تمسك به، يقبّلون هذه اليد، ثم يفترشون الغبراء على جانبي المرتبة وشيخ المرتبة برأسه وبطرطوره وبالسقيفة التي تظلّلهما.

فتأخذ يد الشيخ، المطرطَر والمسقّف، في طيّ الحبل ثم في إرساله ثم عدّ عقده ثم في إرساله. حتى نَخاله يسبِّح بسُبْحَة أو يلاعب أفعى تنساب بين يديه كما تنساب في نُخاله.

وتصدر عن الشيخ همهمة:

أحدهم: أعد!

فيعود الشيخ ويهمهم.

آخر: طيّب الله الأنفاس!

فيزمجر الشيخ المطرطَر.

آخر: بالروح، بالدمّ..!

الشيخ : أزعجتنا هذه الصَّبِيَّة الطبّالة.

الجميع : ما لها؟

الشيخ : هذا رأس. مش بطيخة!

الجميع : تبًّا لها!

الشيخ : بلغت سنّ الرشد؟

الجميع : بلغت سنّ الرشد.

الشيخ : فمتى تثوب إلى العمى؟
العمى..!

أصوات : أنت عيوننا..
يا عيوننا..
يا عين.. يا عين.
لا طرطور غير هذا الطرطور.
طراطيرنا نواطيرنا..

أحدهم : لِيَحْيَ الطرطور..
لِيَحْيَ الطرطور!

الشيخ : الناطور. قولوا: الناطور.
إذا أردتم تكريمي فنادوني
بالناطور.
نحن عيلة واحدة، يا أولادي.
وأنا ناطورها.

أما الطرطور فوظيفة.
بحسب الدستور. كلّه بحسب الدستور.

أحدهم: بالروح، بالدمّ.
نفديك يا طرطور!

الشيخ: قُلنا ناطور، يا ولدي.
ناطور. طور.

أحدهم: بالروح. بالطّور.
نفديك يا ناطور!

الشيخ: وابنة الزانية،
كيف فعلتها الزانية
كيف تأخّر نموّها؟
هذه المعوّقة المارقة!

آخر: سمعنا أنها تستعمل مسحوقًا
أحضرته من خارج القرية
لمنع العمى.

فيهمهم الجمع. ونسمع أصواتًا تردد:

أصوات: رجس.
رجس من الشيطان.
جيل وقح.

مُدمن على تعاطي البصر.

الشيخ: أحضرته من خارج القرية!
من خارج العيلة؟
عيب!

أحدهم: قالت إنّه مسحوق
البرتقاليّة.

الشيخ: دكترة البرتقاليّة؟
أعوذ بالله!
وأنا، وطرطوري؟
وأجدادي.
الشجرة،
حتى جذور الشجرة
والديدان في جذور الشجرة!
نحن فلاّحون، يا أولادي.
غيط.
من سبعة آلاف سنة والمرَس
في أيدي أجدادنا.
نتوارثه
ونتوارث رقابكم فيه.
مَدنِيّة عريقة:

تُقبلون وتقبّلون،
فأتقبّل منكم الجزية
وأنظر عليكم.
عيلة واحدة
فلاّحون
بقر. غجر – دستور.
كلّه بحسب الدستور.

آخر: لتسقط دكّة البريطانيا.

آخر: أمرهم شورى بين الطراطير!

آخر: حمير، أولاد حمير!

آخر: هل من مُعين،
هل من مُجير؟

الشيخ: أنا..
ربّ العائلة.
والمرَس
والعصا لمن عصى
والعمى!

أحدهم: عاش الطرطور الذي أسبغ علينا
نعمة العمى
وراحة البال.

الجميع: عال. العال.
عال. العال.
امرأة: ماذا فعلت الجاهلة؟!
الشيخ: جاهلة؟
بنت العشرين، جاهلة!
خرجت على الإجماع القومي،
عن طاعة الآباء والأجداد.
تستحمّ في النهر دون الاستعانة بالحبل.
وتميّز النهار عن الليل.
تَسْتَرِقُ النظر.
وتحدّث بصراحة الطفل.
أُمّها: ما زالت طفلاً، يا ولدي.
تغرّب والدها للعمل في مزارع
البيض.
فعاد عظامًا لا تصلح حتى للحَساء.
يتيمة وجائعة
وأنا منبوذة أحسو
تراب الأرض.
الشيخ: العمى..
بلغتِ العشرين

ولم تطلع في عيونها الطواحين؟!
زانية بنت زانية.
أَبعدي ابنتك ومسحوقها المستورد
عن أولاد الناس.
أو تسحقها وتسحقك الأُمّة!

أحدهم: لا خوف على أولادنا.
أولادنا رضعوا التراخوما
من أثداء أُمّهاتهم
الحرائر.
لا خوف على أولادنا،
يا سعادة الطرطور.

الشيخ: قُلنا ناطور، يا ولدي.
ناطور.
عيلة واحدة وأنا
ناطور.

نفسه: يا صاحب الجلالة الناطور.

آخر: الأوحد والوحيد
ومدى الحياة!

الشيخ: بالدستور يا ولدي..
كلّه بالدستور.

الأول: لا خوف على أولادنا بالدستور.

آخر: الطرطور فوق الدستور!

الطرطور فوق الدستور!

الشيخ: لا، يا ولدي. لا لزوم.

فالدستور هو الطرطور والطرطور هو الدستور.

الأول: لا خوف على أولادنا. هو الطرطور.

والطرطور هو الدستور.

الجمع: الدستور هو الطرطور.

والطرطور هو الدستور.

ويمضون في ترديد هذه اللازمة وهم يتمايلون على وقعها، في دروشة مغرية نضحك لها حتى تُغرينا على تقليدهم، إنشاداً ودروشة.

فنفعل ونحن في غفلة من أمرنا.

وفيما نحن على هذه الحال، تدروشنا الدروشة، إذا بنا ننتبه إلى حلقة الصِّبْيَة والصبايا، في الزاوية، وقد أخذت تتمايل، هي أيضاً، إلى يمين وإلى يسار. وتهمهم على إيقاع النشيد. ثمّ إذا بأصواتها تعلو. وإذا بنا نسمعهم، هم أيضاً، يردّدون:

«الدستور هو الطرطور.

والطرطور هو الدستور».

فتنتفض الصبيَّة الطبّالة فإذا هي واقفة في وسطهم وقد أُسقط في يدها. وترفع يديها إلى السماء في ذهول. فيأخذ الصِّبْية والصبايا في الوقوف وهم يتمايلون وينشدون.

وإذا بهم يمضون، وهم على هذه الحالة، متعثِّرين في مشيتهم. ويتقدّمون وأيديهم أمامهم تتلمّس الأثر، عُميانًا، أو متعامين، حتى يتحسّسوا كبار القوم منهم، السابقين في النعمة. فيفسحون المجال أمام الجيل الجديد. فيقرفص الجيل الجديد وراء الجيل القديم ويمضون في التمايل والإنشاد حتى تصرخ الطبّالة:

الطبالة: هل أكلتهم التراخوما؟!

المهرج: الأنتيكا، يا صَبِيَّة،
الأنتيكا!

الطبالة: أين أخطأت؟

فتنبّ عن أحد الشبان العميان، أو المتعامين، قهقهة عالية، ثم يقف على قدميه وهو مُمعن في الاهتزاز وفي الدروشة. ونسمعه يرد على الصَّبِيَّة أن:

«بضاعة مستوردة.
لا تتّفق وتقاليدنا.
ستظلّين، يا طبّالة،

على هامش الحياة
ما دمت تعتمدين على المساحيق
الأجنبيّة.
أما نحن،
فقد تخلّصنا من التحجّر
ومن الأبقار المقدّسة
اندمجنا!
تعامَينا حتى عَمِينا.
اندماج كلّي.
وغداً سنرث الطرطور.
فلا صاحب جلالة ولا من يحزنون.
بل رفيق..
صاحب الجلالة الرفيق الطرطور!
وفي القرية المجاورة
نجح الانقلاب».

الطبالة: والتراخوما.
هل تخلّصوا من التراخوما؟

فلا نسمع جوابًا سوى قهقهة ذلك الشاب، مرة أُخرى، وسوى استمرار اللازمة:

«الدستور هو الطرطور
والطرطور هو الدستور»

ويتسارع الإيقاع فيتسارع الاهتزاز. ويعلو الصوت بالنشيد حتى يشقّ عَنان السماء.

وإذ بهم يقفون على أرجلهم، طرطوراً وجماعة – ويرسل الشيخ حبله المرس فيتعلقون به، واحداً وراء الآخر. ويَمضون خارجين: الشيخ في الصدر والشاب، المندمج كليًّا، في مؤخرة الطرطور. ثم بقية الجماعة. ونرى هذا الشاب يهمّ بأن ينتزع الطرطور عن رأس الشيخ فيتردد إمعانًا في الاندماج. ونرى، في مؤخرة الجميع، القادمين الجدد.

وتضرب الصبيّة الطبّالة كعب حذائها بالأرض عَنَتًا أو إصراراً على التحدّي. ونسمعها تردّد لازمة أُخرى:

«راح زمان الأنتيكا.
راح زمان الأنتيكا!».

ثم تهرول خارجة ورأسها في السماء تنقر على طبلتها نشيد الأُمميّة.

فيسألها المهرج:

المهرج: إلى أين، يا صبيّة؟

الطبالة: أبحث عن جيل جديد.
لن أكفّ ولن أملّ.
فهل من بديل؟
إنّي أُحبهم كما أُحبّ بؤبؤ العين.
وأُحبّ بؤبؤ العين.
فهل من بديل؟
أنا واحدة منهم.
وقد شُفيت.
فلماذا لا أشفيهم؟
سوف يشفون.
فهل من بديل؟
ماذا تريدني أن أفعل؟
هل من بديل؟

وتمضي.

ونسمع المهرج يهمس في أُذن بدور:

المهرج: يقينًا، ماذا نريدها أن تفعل؟
هل من بديل؟

ويتّجه نحونا ويسألنا:

«أجيبوني –
هل من بديل؟».

فلا نَحير جوابًا.
فيعود:
«هل من بديل؟».

فنمعن في الصّمت..

(٢)

و«لكن» أُخرى بعد «لكن» التي ورد ذكرها آنفاً..

ويذهب المهرّج ويجلس إلى جانب بدور على مقعد الصندوق. ويحوطها بذراعه. ونسمع، من بعيد، لحن «أُغنية حنين الهندي»، لحنًا يقطّع نياط قلوبنا، فكيف بقلبَيهما؟!

ويشرق حنين في سماء بدور.

ويكون المهرج يهمس في أُذنها:

المهرج: أتسمعين، يا بدور؟

بدور: حنين..

المهرج: أتذكرين، يا بدور!

بدور: تذكرته..

حنين..

الشاب الأسمر.

بائع الكتب الجوّال.

صاحب اليدين الساحرتين.

يُشعل الفتيل المبتلّ

وخيال العذارى..

يا لطيبة قلب الأُمّهات!

أتذكر؟

فيضحكان.

صوت امرأة: روحي، يا بنت، نادي على الشاب حنين، صاحب اليدين الساحرتين، يعينك على تشميس الفراش.

صوت زوجها: إيّاكِ ثمّ إيّاكِ!

لسانه سحر

وعقل البنت طار.

الزوجة: لقد طارت وقُضي الأمر..

فيضحكان.

المهرج: طارت إلى بعيد..

بعيد.. بعيد!

تغرّبت.

غرّبوها.

غرّروا بها.

فَغَرت هُوّة الزمن فمها.
فابتلعت الذاكرة.
بدور: كان صانعًا فقالوا لها:
صايع!
كان مؤمنًا بالحياة فقالوا لها:
كافر بالآخرة!
أحبّ الناس أن يتحابّوا
فقالوا لها:
خائن!
آمن بالكلمة فقالوا:
أهبل!
زوّجوني بآخر، يا حنين.
طيّروه..
فطرنا بعيداً
طرنا وطارت الأيام!
المهرج: أتذكرين؟!
بدور: حين ذهب بدر ولم يعد
وَخَزَني صدري.
فلما ذهبت بدريّة،
ثم ذهب بدران

فبيادر..

تحرّك في أعماقي

حنين راقد.

تأنيب ضمير:

ماذا فعلنا، يا إلهي،

وماذا لم نفعل؟

أيختلف ليلنا عن كل الليالي

بطوله؟

صوت أم: آه، يا ولدي البعيد

عن الديار!

ويلاه!

كيف تعود وحدك؟

لا دليل ولا رفيق؟ (*)

صوت ولدها: أُمّاه

ليتكِ لم تغيبي خلف سور

من حجار.

لا باب فيه لكي أدقّ

ولا نوافذ في الجدار!

كيف انطلقت بلا وداع

فالصغار يولولون

يتراكضون على الطريق
ويفزعون فيرجعون.
ويسائلون الليل عنكِ
وهم لعودِك في انتظار(*).

المهرج: في انتظار؟

بدور: كفى قشمرة، يا حنين!
أنت حنين.
الشاب الأسمر
بائع الكتب الجوّال
وصاحب اليدين الساحرتين
لا، وحسرة الزمن الضائع،
يا حنين.
لم أسأل الليل عنك
نسيناك، يا أسمر،
حتى سألنا الليل عنك.

المهرج: بدور!

بدور: إن وسواسًا يراودني على حياتي
حتى يدهمني الشعور بالعبث.
يمتلئ صدري بالفزع
من هَزْلك الجادّ، يا أيها المهرّج.

المهرج: بدور..!

بدور: هل تظلّ ذاكرة الشعب
عذراء
من جيل إلى جيل
حتى ولو لم يبقَ مغتصب،
عبر الزمن الغاصب،
إلاّ واغتصبها وأثخنها بالجراح
وأهدر دمها
وأخذها سَبِيَّة
وباعها في سوق النخّاسين؟
هل حقًّا؟!

المهرج: ألوم نفسي..

بدور: لا تلُم الضحية..
أتذكر؟

المهرج: قد يكون أن أكَلَةَ لحوم البشر،
العصريين،
– بالشوكة وبالسّكين –
يلتهمون، معها، الذاكرة.
ربما!

بدور: هل قُيِّض لهذا الشعب المبتلى،

المـمتحَن..
المـطوّح، المضـرّس، المغـدور،
أن يـعود عـلى التجـربة
من أوّلـها؟
هل يـنسـى؟!

المهرج: لا يـنسى وطـنه!

بدور: حتى الوطن؟!
لا، لا يـنسى وطـنه.
ولا المغـتربون المغرّبون،
الغـائبون المغيّبون،
يـنسَون الوطـن.
فالوطن لا يُـنسى.
لا يُحمـل على الظـهر في حقـيبة
حتى يُنسـى في محـطّة.
أو يُلقى عن الظـهر
تعبًا..
ليس الوطـن كـالنّـفس.
إنما الوطـن كـالتنفُّس.
وحـال الوطـن كـحال إنسـان الوطن:
لا يـختار إنسانيته بـل يولـد

إنسانًا.
وإذا خُيِّرنا،
هل نختار أن نولد خنازير؟
أتذكر؟

المهرج: أذكر ولا أنسى..

بدور: وحين تثاقل الفراق في مشيته
واستولى على عيني الغربة
النعاس
وأخذ الوالدون يتساقطون
تساقط فراش يهوم على
سراج،
سراج يشتعل فتيله وينضب زيته –
سراج العودة –
أشفقنا على معالم الوطن أن تُدفن،
مع الرجال،
في صدور الرجال،
حين راحوا يَمضون وتَمضي معهم،
مكفّنة بصدورهم،
حكايات بدور التي أسرها الغول..

صوت غلام: ستّي بدور! ستّي بدورا

شوفي القمر كيف يدور!

صوت فتاة: وأينهُ وأينهُ

يا ولد؟

فنسمع صوت قهقهة. ثم نسمع صرخة فتاة، تلك التي أسرها الغول.

بدور: فنقلنا إلى الوِلْدَان

معالم الوديان،

وتغيُّر الزمان،

والصمود في رؤوس الجبال..

صوت رجل: بلِّلي شفتَي أحمد بقطرة ماء،

يا أُم أحمد!

يا أُم الشهيد!

بدور: وأسماء الأطلال

والصمود المُحال

والناس والرصاص

وبحّارة يافا وعمّال حيفا

وزنزانة في عكا

وأُرجوحة

وظلام السجن
ومناحة
وملوك ومملوك
وملك مملوك..

المهرج: حبيبتي بدور..

بدور: حتى ثورة العشرين وجدنا من يتحدث
عنها من فرسانها،
ممّن لم يَحْنِ هاماتهم
لا الزمن
ولا المحن
لا الغربة
ولا ذوو القربى
ولكن ما هَزَمَنا؟!
ما شرّدَنا؟!
ماذا فعلنا ولم نفعل؟
ما هذه العقارب القارصة
تُحصي الدقائق والساعات والأيام
والسنين
في الزمن القارص،
في هذا الزمن الضائع؟!

المهرج: تأبى صدور هؤلاء الرجال
أن تُخلي سبيل السرّ.
الصدمة الكبرى، الصاعقة،
البراكين..
أَعْشَت أبصار الذاكرة.
وألقت على الجرح غشاوة من الرحمة
الذاتيّة،
رحمة بهم وبما بذلوه
من أبناء
فأعادتها عذراء،
إلاّ من ذكرى الكروم والبيارات
والبيادر
وأيام كنّا..
ربما!
ولكن، يا بدور،
لا تلومي الضحيّة.
أتذكرين؟!
بدور: أذكر ولا أنسى.
ولكن!
هل من الممكن، في حالة الشعوب –

أيّ شعب، هذا الشعب –
التضحية بالكبش المضحّى،
هو نفسه،
مرة ثانية فثالثة
فعاشرة
هو نفسه؟!

المهرج: هو نفسه. وهو آخر، يا بدور،
في المكان نفسه.
مثل الشعوب مثل مياه النهر:
هي نفسها وهي أُخرى
في النهر نفسه.
وكبش الضحيّة، ولد الضحيّة.
هو نفسه وهو آخر
في المهمَّة نفسها..
من عيد إلى عيد.
من عيد إلى عيد.

بدور: خلعنا جلد الضحيّة.
حملنا البندقيّة.
ورثناها لامعة
مسنونة،

محفوظة بالزيت
في أضرحة الآباء والأجداد.
أمانة تُردّ إلى الأحفاد.
لقد حملوها كما لم يحملها شعب
فيما بين البحرين.
وقدَّموا، من أقصى الجود،
ثمنًا لحريّتهم
يفيض عنها
ويروي موات الأرض لدى ذوي القربى
ويخفّف العبء عنهم.
ثم لا يردّون الجميل إلاّ
نكرانًا!
لقد أرخصوا نفوسهم حتى أصبحنا نشعر
بأن استمرار حياتنا
خيانة..

المهرج: أو لأمر عظيم، يا بدور!
حكمة سماويّة.
ومسؤوليّة اجتماعيّة.
نحن جيل، يا بدور، يعلم أن حياته
وصيّة..

بدور: ها أنا، يا حنين،
وصيّة..
وصيّة بدر وكل البدور
أجيال النسور..
فماذا فعلنا وماذا لم نفعل؟
أيّة غشاوة أُلقيت على الذاكرة
فأعادتها عذراء؟!

فيقف المهرج على قدميه. ويلتقط صَنْجَيْه ويصفِّق بهما. وما إن يقوم بهذا الأمر حتى يأتينا لحن شهرزاد، ألف ليلة وليلة، وشوشة آتية من جوف الماضي. فيتراجع الضوء مخلِّفًا وراءه حُبَيبات من النور تحملنا جميعًا، وتحمل معنا المحبّين اللّذين التقيا في خريف العمر، والصندوق، إلى سالف العصر والأوان.

ويأتينا صوت المهرج، في هذه الأثناء، ينشد قائلاً:

المهرج: عن شِكي، عن بِكي.
عن جعفر البرمكي.
آن الأوان، يا صبيّة
أن تنطُقي!

وإذا بكومة سوداء، لم نكن انتبهنا إلى وجودها في الزاوية القصيّة من المسرح، تنقشر عن فتاة مُفتنة. كأنها زهرة المُرار، تسلب الألباب وتجفوها الدوابّ. وإذا هي شهرزاد الأُسطورة، بردائها الناعم الفضفاض وبسروالها المهنّد والمسنَّد – شهرزاد كما خلقوها لنا حتى نسبِّح الخالق ونسبِّح في نعمة خلقه. ولله في خلقه شؤون.

وتبتسم شهرزاد ثم تردّ على المهرّج قائلة:

شهرزاد: «ولكن الشوف، يا ناس،
مش مثل الحكي!».

فيعود المهرّج إلى شكواه وبكاه:

المهرج: عن طير طار
طار ثم طار
ولكن ما نسي الأهل والديار.
عن بير ما له قرار.
وعن وطن حوّلوه إلى
مقبرة فخّار.
وعن قُمقُم بأيديهم حطّموه،
فانطلق منه مارد حبيس،
مفتول الساعد،

ذكي وأنيس.
يشعل في الهشيم النار
ويبدّد ظلام الليل.
ويطلع علينا وعلى الحاضرين
أجمل نهار.

شهرزاد: عن شِكي. عن بِكي.
آن الأوان، يا صبيّة،
أن تضحكي..

المهرج: عن شِكي. عن بِكي.
يا صبيّة تكلّمي!
ما بكِ؟!

فتتكلم شهرزاد. تحكي لنا حكاية من حكاياتها:

شهرزاد: بلغني، يا مهرّج الزمان،
الطويل اللسان،
أن السندباد، في رحلته الأخيرة،
وقع على جزيرة باسقة الأشجار،
بعيدة الثمار.
وكان أرهقه الجوع والإجهاد
والسجود لربّ العباد.

ولكن الشوف، يا ناس،
مش مثل الحكي..

وتقوم شهرزاد عن جلستها الشهرزاديّة، تتلوّى وتتقصّف، وتكشف ستارة في زاويتها تتكشّف عن شجرة باسقة، ثمارها بعيدة المنال تتلألأ في الضوء، أشبه بلآلئ البحر منها بثمار البرّ، حتى كأنها تنادي المشاهد:

«هل لك، يا أبا الحسن. هل لك؟».

ويكون يقف تحت هذه الشجرة السندباد كما نراه في عيون أخيلتنا: شابًّا قويّ البُنية، فارع الطول، حقيقًا بأن يصول وأن يجول. إلاّ أنه يظهر أمامنا، الآن، في بقية من ثياب ممزّقة، مجرّحًا، مثخنًا بالجراح. ويكون مَحْنيّ الظهر يعاني من القهر. وهو يئنُّ ويتوجّع.

ونرى، تحت قدميه، كومة من هشيم. وهي أغصان وعيدان جافّة. تنتشر رائحة عفونتها انتشار رائحة العفن الذي يلفظه بحر على شاطئه بعد أن ينحسر. وتكون أشبه بقشور الأشجار والحطب، مما يتراكم في جوف غابة أُوروپيّة تتزاحم رؤوس أشجارها على نور الشمس فلا تترك منه، للجوف، سوى الأشلاء والفتات وجِيَف العفونة.

ونرى، في وسط هذا الركام – جزءاً منه – شيخًا هرمًا قميئًا، تنتشر صفرة الموت في سحنته الشبيهة بالأرض الموات التي شقّقها الكسل، قزمًا في طول عود من العيدان المقصوفة والجافة حواليه. له يدان ورجلان أشبه ما تكون، في دقتها وفيما تثيره في النفس من اشمئزاز، بأرجل العنكبوت الدَّغفل وأطرافه العنكبوتيّة. ويكون هذا الدَّغفل يحيط رأسه – صدّقتم أو لم تصدّقوا – بتاج تتلألأ جواهره حتى نخالها لقيّة في نبش نِخالة.

ويكون هذا الدَّغفل يُخرج من فيه أصواتًا حادّة أشبه بفحيح الأفاعي أو بما يصدره من صوت مسمار يُسحب على صفحة من حديد.

ونتبيّن فحوى فحيحه:

الدَّغفل: سندباد! سندباد!

السندباد: آه يا ظهري. أنا جائع
والثمر بعيد المنال.

الدَّغفل: سندباد! سندباد!

السندباد: مَن المنادي؟
مَن المُجير؟

الدَّغفل: أمامك أنا،
بين رجليك.

أيها الجائع
أنا أُطعمك .

السندباد : إنّي أرى قزمًا
أو بعضًا من قزم .
فكيف تبلع الثمار؟

الدّغفل : اِحْنِ ظهرك . .
تحت . .

السندباد : ولكن الثمار فوق ،
فوق .

الدّغفل : اِحْنِ ظهرك
فأركبك
بقامتك وبيدي
أبلغ الثمار .
أقطفها بيدي
وأُطعمك .
والد برّ بولده .

السندباد : تركبني؟!

الدّغفل : حتى نبلغ العُلى
فوق . .

السندباد : هل أفعل؟

أراه يلبس تاجًا.
لآلئه تُبهر البصر.
عريق المحتد.
شيخ بركة.

الدَّغفل: اِحْنِ ظهرك يا ولدي!

فيحني ظهره السندباد.

الدَّغفل: تحت، تحت، يا ولدي!

السندباد: البَرَكة فيك، يا شيخنا.

الدَّغفل: أوطأ. أوطأ. يا ولدي!
مالك غيري، يا حنون.

وإذا بأمرين يقعان في آن واحد. الدَّغفل يقفز فإذا هو فوق كتفَي السندباد راكبًا وهو يضحك في هسهسة كريهة. والمهرّج يصرخ فيأتينا صراخه غمغمة وجلجة.

المهرج: حَذْ.. حَذْ..
حذار يا سندباد!

الدَّغفل: قُضي الأمر.
نفذ السهم.

ولم تعد تُجدي الحذحذة!

السندباد: أُقطف لي ثمرة، يا شيخي،
فإنّي جائع.

الدَّغفل: الثمر بعيد المنال.
وأنت محنيّ الظهر.
جاهل.
أقم ظهرك حتى أبلغ الثمر.

السندباد: كيف أُقيم ظهري وأنت تركبني
يا شيخ؟

الدَّغفل: شدّ حيلك!

السندباد: خفّف ضغط ساقيك
على عنقي!

الدَّغفل: فترميني عن ظهرك،
أيها الخبيث؟
سأَشدُّ على عنقك حتى أُكرهك
على الانتصاب.

فسمع حشرجة السندباد وهو يتحامل على نفسه ويعالج قامته ليرفعها.

الدَّغفل: إِجهد جاهد!

شدّ!

ها هو تاجي يلتصق بالثمار!

إنها جواهر!

السندباد: جواهر؟

أين الثمار؟

إنّي جائع..

الدَّغفل: جواهر مَجْد

علا!

أمجاد. جواهر..

ويملأ تاجه وجيوبه بالجواهر.

السندباد: الخبز..

الدَّغفل: ماديّ..

كافر بالشرق الروحانيّ.

أمجاد. جواهر!

السندباد: أنا جائع!

كِسْرة..

الدَّغفل: يكسر رقبتك!

أنا ربّكم كسرى.
ألم يكفِك أنني أقمت ظهرك
وأعدت أمجادك
وأنشأت لك الجامعة العربية؟
خيّل!
ويخيّل عليه.

وإذا بالأرض تزلزل زلزالها ويهبّ الإعصار فتقع الشجرة. وتتبعثر الجواهر. فيقفز الدَّغفل من فوق كتفَي السندباد. فيقع على الأرض. فيمضي يحبو على أربع يلتقط ما تناثر عليها من جواهره. ويروح، وهو يحبو، وراء جواهر بعيدة عن أنظارنا.

السندباد: الزلزال! الزلزال!

الدَّغفل: ليس زلزالاً، يا جبان،
يا خائن،
بل زلزال مزعوم.

السندباد: يقتلعني الزلزال!

الدَّغفل: أرض الله واسعة
من المحيط إلى الخليج.

يا هلا! يا هلا!
ولعلّكم تكرهون شيئًا وهو خير لنا..

وفيما يختفي الدَّغفل عن أنظارنا تقوم شهرزاد متثاقلة، كما على شهرزاد أن تقوم متثاقلة، ونسمعها تقول في غُنْج:

شهرزاد: الآن جاء دوري..
خلا الميدان
وآن أواني كي أركبه.

ويهمّ السندباد بأن يقيم ظهره. ويحرّك أطرافه وقد تخلّص من العبء. فيبدو الألم على وجهه من جرّاء هذا الجهد والجوع القديم. ونسمعه يتأوّه ويقول:

السندباد: العنكبوت! الدَّغفل!
ركبني فخانني.
امتطاني فطوّح بي.
لن أنسى!
لن أغفر!

المهرج: إن من ركبك خانك
يا سندباد
أَقِمْ ظهرك!

شهرزاد : العنكبوت. الدَّغفل.
شيخ متخلّف.
ولّى زمان المطايا!
كفى ما ارتكبوا من خطايا!
أبْشِرْ، أبْشِرْ، يا سندباد!
جاء الخلاص.
أنا الخلاص.
القائد!
لن أُمكّنه من ظهرك
مرّة أُخرى.
السندباد : من؟ شهرزاد!
هل أنت الأمل الذي كان يراودني؟
من قديم الزمان؟
شهرزاد : أبْشِرْ، يا سندباد!
أنا الخلاص، يا حبيبي.
لن يركبك الدَّغفل
بعد الآن!
السندباد : كيف يتحقّق هذا الأمل
يا حبيبتي؟
من يحمي ظهري؟

شهرزاد : أنا، يا حبيبي!

السندباد : كيف يا حبيبتي؟

شهرزاد : أمتطيك أنا!

السندباد : تمتطينني؟ يعني،
تركبينني؟

شهرزاد : أبداً.
الامتطاء غير الركوب.
الامتطاء عود إلى الزمان الأوّل.
فروسيّة!

السندباد : أنتِ؟!

شهرزاد : خفيفة الوزن أنا،
والظلّ والدم.
صغيرة. كُلّي نشاط.
عمري أمامي.
أمتطيك وأطير بك.
جناحاك أنا، يا حبيبي.
نِخّ!
نِخّ!

بدور : ولكنه مرّ على هذه التجربة.
هل نسي؟

هل عادت ذاكرته عذراء؟!

شهرزاد: أنا جديدة، يا روح أُمّها.

تجربة جديدة.

كلّي نار!

جرّبوني أسرّكم.

جرّبوني يا عيوني!

المهرج: سويّة، يا شهرزاد!

بلا راكب ومركوب.

شهرزاد: اِخرس أنت، يا روح أُمّك!

قال: بلا راكب ولا مركوب!

فلماذا خلق الله الأكتاف

إِذن؟

كافر!

المهرج: الناس سواسية..

شهرزاد: سَوَّس الله عظامك!

أنت من؟

من أبوك؟

أصلك. فصلك. علمك. دينك؟

نِخّ!

نِخّ!

المهرج: سندباد. يا سندباد!
لا تنخّ!
هناك ظهور منتصبة
أكتاف حرّة!
إنك إنسان!
السندباد: أنا جائع. مُتعب. متفرِّق.
جائع إلى الخلاص.
إذا لم يركبني
من يركبني؟
أتركبني؟
المهرج: موقعي ليس فوق ظهرك،
يا سندباد!
بل معك!
إلى جانبك.
نتكاتف:
كتفًا إلى كتف.
وإذا شئت،
نتقدّم الصفوف!
بدور: اِركبه، يا حنين..
لماذا لم تركبه؟

كيف ضيّعت فرصة العمر
وأنت مشغول بهذه السفسطة؟!

المهرج: سفسطة؟!
سفسطة، يا بدور!
أيغيب السرّ عنك
مرّة ثانية؟!
هذا هو السرّ الذي غاب عنك
حين زلزل البركان.

شهرزاد: تعال، يا نُصّ لسان.
راحت عليك.
أسبقُك فأمتطي.
وأُسكتُك بأن أترك لك مكانًا
في القفا.

المهرج: والتراخوما..
وهذا الإنسان؟

شهرزاد: حبّة، حبّة، أكل العنب.
نقيم جبهة، يا روح أُمّك.
نِخّ! نِخّ!

المهرج: سندباد! سندباد!

شهرزاد: صوتي أعلى.

صوت المجد التليد أعلى
نِخّ! نِخّ!
نِخّ، فتبدأ المسيرة
ونشرع في الإنشاد.
نِخّ!

فَيَبْرُكُ السندباد. فتركبه. فلمّا تعلو ظهره تُخيّل عليه وهي تُنشد نشيداً حفظناه في المدرسة الابتدائيّة عن ظهر قلب، ولذلك لا يصحّ، في هذا المجال، القيل والقال:

شهرزاد: بلاد العرب أوطاني
من الشام لبغدانِ
ومن نجد إلى يمنٍ
إلى مصر فتطوان
فلا حدّ يباعدنا ولا دين يفرّقنا
لسان الضاد يجمعنا
بغسان وعدنان.
لنا مدنية سلفت
سنحييها وإن دثرت.

(تصفيق!)

ولو في وجهنا وقفت
دهاة الإنس والجان

(عاصفة من التصفيق)

فهبّوا، يا بني قومي،
إلى العلياء بالعلم
وغنّوا، يا بني أُمّي،
بلاد العرب أوطاني.

وفي لحظة من اللحظات، حين يكون صوت النشيد يعلو أعلى من صوت شهرزاد ننتبهُ إلى أن السندباد، أيضًا، مشترك في الإنشاد. بل نسمع صوته يعلو على صوت شهرزاد. وتأخذه النشوة. ويستبدّ به الطرب. فيفرح ويمرح. فيما تكون شهرزاد على مثل حاله سوى أنها الراكبة وهو المركوب.

وفي لحظة تالية نلاحظ - بلا دهشة - أن بدورَ، نفسها، قد استبدّ بها الحماس. فأخذت تصاحبهما في الإنشاد وتمرح وراءهما وهي مأخوذة.

وحين ننتبه إلى أنفسنا فإذا بنا، نحن أيضًا، نُشارك في الإنشاد، نُدرك أنها غير مؤاخذة.

ويكون المهرّج يتمتم بكلام غير مفهوم. ثم يضع كفّيه على عينيه، إما عن شعور بالإِحباط وإمّا عن رغبة في أن لا يرى ما نرى من أمجاد.

ويغيب الفارس والفرس وبدور عن أنظارنا. فنصمت ذلك الصّمت الذي يسبق العاصفة. أو صمت الولد السارق قد مُسِكَ والتفّاحة الحرام في يده.

ولا يبقى في القاعة سوانا، نحن والمهرِّج، وجهًا لوجه!

(*) الأبيات للشاعر العراقي بدر شاكر السيّاب.

(٣)

الوجه المُشرق

لا يبقى في القاعة سوانا، نحن والمهرّج، وجهًا لوجه. كلانا يغضّ الطرف عن الآخر خجلاً من نفسه أو حرصًا على دخيلة نفسه.

وإذا بالمهرج يتقدّم نحونا وأمارات التصميم بادية على وجهه. فيخيفنا منظره، بالعينين الواسعتين، الشاخصتين. فينفجر طفل بالبكاء. فتهزّنا المفاجأة. فَنُهَمْهِم مدّعين أننا نضحك.

المهرج: حتى أنت، يا بروتُس؟!

لا، والله!

أنتم؟!

وربّ الكعبة لأحملنَّكم على الطريق!

إلاّ أنتم!

أنتم الذين، حين جاءكم الإعصار وفرّ الدَّغفل، تخلّى عنكم كل الراكبين، بالضّاد، على ظهوركم.

قالوا: ليركبكم الشيطان، إذا شئتم.
أنتم؟
أنتم، في عيونهم، أموات
كما أنّ وطنكم، في عيونهم، قد مات.
مُتُّمْ في عيون أعجازهم.
أعجازهم المفتّحة بلا عيون.
ما داموا لا يستطيعون أن يركبوكم
ليركبكم الشيطان!
سيَّان!
الشيطان أخو الشيطان
خونة!
لماذا بقيتم في وطنكم؟
حتى يركبكم العدو؟!

ويتكئ على صندوقه. ويتنهّد. ثم يقول:

المهرج: أولاد الناس. يا أولاد الناس!
أنتم أبناء البلد وبَناته.
أنتم أبناء الوطن وبُناته.
إنّ من ألقى على كَتِفَيْه هذا الفيل
لن ينخنخه لا الزعيق ولا العويل.

إطمئنّوا، يا أبناء البلد وبُناته،
بدور عادت إليـنا
عودي بدور!
أُم بدرا

وإذا بصوت بدور يشقّ عَنان السماء. نسْمعها تنادي. ثم نراها ماثلة أمامنا، بثيابها، ومضرّجة بالدماء.

بدور: حنين..!
يا حنين الصِّبا!
أوطاني ضاقت بنا!
حين رفعنا هاماتنا
لنطلّ على الوطن،
تفرّقوا من حولنا.
أيدي سبأ..
أيدي أرانب..
أصبحنا عالة. عبئًا على المجتمع،
يا حنين.
مجتمع حمّالي الأسيّا!
لا مكان إلاّ للحمّالين.

وأمّا منتصبو القامة
فتعجّ بهم السجون
وبطون الأرض.
وهناك..
لا مكان لنا!
لأن ضريح بدر
هنا!
وحرام علينا أن نزوره، يا حنين!
حرام علينا أن نُدفن معه!
حرام علينا أن نُدفن معه؟!
لُكَع يحكم، يا حنين!

المهرج: وهنا، يا بدور!

بدور: فمتى تقوم الساعة؟
أترى ضوءاً في السرداب؟
عمّا يكشف صندوقك،
من مستقبل، يا حنين؟

المهرج: لا أنا بصّارة ولا أنا برّاجة
يا بدور.
لست قارئ كفّ ولا منجّم أبراج.
بل أستعيد الماضي.

لا لكي أفتح جراحات
بل كي لا تذهب التجربة هباء
ولا تعود الذاكرة عذراء،
أشبه بذاكرة طفل.
إذا لم نرَ الحاضر
لا نستطيع أن نرى المستقبل.
إن أمرًا واحدًا يُقلقني في هذا الأمر،
يا بدور،
وهو أن نقعد ننتظر الانفجار
قيام الساعة
أن ننتظر ساعة لا يعود فيها
الحال محتملاً.
هذه الساعة لا تحين،
يا بدور!
فالذي يَحتمل منتظرًا ساعة الانفجار
يصبح الماضي البشع، في عينيه،
أمرًا جميلاً.
فيحتمل الأسوأ منه.
حتى إذا مضى
يصبح، هو أيضًا،

أمرًا جميلاً،
إنّي أفكّر بإخوة سعدي
وبإخوة سعادية.
لا يمكن أن يجتمعا على النّفاق
إلاّ فيما وراء هذه الحياة.
قرأت الخطاب الذي لم يُلقَ
فانتابتني الهواجس.
ها نحن نقترب من منتصف العقد الثاني
للاحتلال.
فلا عجب إن اضطرب صاحب الخطاب
أمام تعاظُم المقاومة في وجه
القمع المُتعاظم.
يبدي خوفه من أن يستيقظ
في صباح أحد الأيام،
فيَهُوله ما يرى في المرآة.
يقول: «نستيقظ في صباح أحد الأيام
وننظر في المرآة
فلا نعود قادرين على تحمّل
الوجه القذر
والمثير للاشمئزاز

الذي يبحلق فينا»(*).
بدور، يا بدور!
لقد حملت صندوقي
وأنا تستبدّ بي الهواجس
إذا لم يأتِ هذا اليوم،
كل يوم!
وفي كل الأيام الماضية،
إذا لم يأتِ حتى الآن،
فإن بشاعة الانتظار
تجعل القرد في عَيْنَيْ أُمه غزالاً.
الوجه الذي يبحلق في صاحبه!
أمن الصعب أن يتخيّله صاحبه
وهو يبحلق فينا؟!
أما نحن، يا بدور،
فوجهنا مُشرق.

بدور: وجه بدر!

المهرج: ووجه قاسم. ووجه خديجة.
ووجه ياسين.
ووجه بدر.
ووجهك، يا بدور.

بدور: ووجهك، يا حنين..

المهرج: فلماذا نخفيه عن أعينهم؟
إنّي أرى بصيص نور.

بدور: شقائق نعمان تُزهر فوق ضريح
بدر.

المهرج: وأشقّاء لنا..
شقّوا على النفاق عصا الطاعة.
يحرصون على ضريح سعدي
كما يحرصون على ضريح سعادية.

بدور: حِرصًا على الأحياء!

المهرج: حِرصًا على الأحياء!

بدور: يطغى ظلام!

المهرج: وينتشر نور
في أماكن أُخرى.
قامت ساعتهم
ولم تبقَ إلاّ ساعتنا.

بدور: لُكع بن لُكع يلي أُمور الناس.

المهرج: لا تقوم الساعة حتى يلي أُمور
الناس لُكع بن لُكع!

بدور: نخلعه ونعود؟

المهرج: نخلعه ونعود.
نعود ونخلعه.
مسيرة واحدة.
بدور: تقوم الساعة؟
المهرج: تقوم الساعة.
بدور: متى يا حنين؟
المهرج: غداً! يا بدور!
بدور: غداً؟
المهرج: غداً.

وإذا بربيع وبسعدي وإذا بسعيد وسعادة وإذا بسعادية يُقبلون في لباس أبيض، بدون أجنحة، يحملون طاقات من الزهور يقدّمونها إلى بدور.

وإذا بجمع من الصِّبْية والصبايا، أُولئك الذين رقصوا رقصة الموت، يُقبلون متهلِّلين ومستبشرين وفي أيديهم الزهور ينثرونها على بدور.

ويغمر نور ساطع زاوية من زوايا المسرح. فيظهر وسط الضوء، وكأنه خارج من الضوء قبساً من نور، شابًّا فارع الطول. ويكون واقفاً على منصَّة يحمل في يده ورقة من الصبّار، التين الشوكي، فلا تُدمى يداه.

فتصرخ بدور..

بدور: قام بدر! إبني بدر!
طلع بدر!
أورق بدر!
اكتمل بدر!
ابتسم بدر!

المهرج: بدور..
غداً، يا بدور!

بدور: قام بدر!
أطلع بدراً.
أنطق صخراً.
حرّك ضميراً.

المهرج: غداً.
غداً، يا بدور!

الجميع: غداً
في الغد. غداً!

ويمضون. وهم ينثرون الزهور، الآن، على الحضور. ويكون المهرّج في مقدّمتهم، يدفع بصندوقه. وإلى جانبه بدور

وحولهما ووراءهما بقيَّة الجمع.

ونسمعهم، وهم يغيبون عن أنظارنا، يُنشدون بصوت واحد:

«الموعِد في الغد.
غداً. غداً.
الحاضر يُعلم الغايب.
غداً. غداً.
صندوق العجايب.
غداً. غداً.
صندوق العجايب.
غداً. غداً».

وفيما نحن نودّعهم بالتصفيق وبالهتاف والوقوف على الأقدام، إذا ببدور تعود وهي تحمل باقة من الورود الحمراء تُلقيها تحت قَدَمَيْ بدر وتولّي باكية.

فنسرع إلى بيوتنا، وإلى أُمّهاتنا وإلى زوجاتنا وإلى أطفالنا، ونحن بين مُصدِّق ومُكذِّب.

أما أنا، وقد يكون هناك غيري، فلا أنام فيما بقي من جوف هذه الليلة..

(*) الإشارة إلى مقال النائب «المعراخي» يوسي سريد («هآرتس» ١٩٩٧/١٠/٣٠).

المحتوى

الجلسة الأُولى: **مجنونة بدر**

الجلسة الثانية: **بدر..**

الجلسة الثالثة والأخيرة: **المهرِّج**

إميل حبيبي

جدل الخصوصيّة والإبداع

يستحضر اسم إميل حبيبي على الفور الأديب الأبرز من بين الآباء المؤسّسين للرواية الفلسطينية المعاصرة، لا بمعنى الأسبقيّة الزمنيّة بل بالمعنى الأعمق للتأسيس، الذي يُحيل إلى فنّية الرواية ذاتها، شكليًا وروحيًا. وذلك فضلاً عن كونه يمثّل تيارًا أساسيًا في الرواية العربية المعاصرة، لحمته وسُداه تطعيم الشّكل الروائي الحديث بعناصر سرديّة وغير سرديّة مجتلبة من التراث العربي والحكايات الشعبية وأشكال السّرد الشفوي.

منذ عمله الإبداعي الأول «سداسيّة الأيام الستة»، الذي ظهر بعد عدوان حزيران / يونيو ١٩٦٧، وحتى «خُرّافية سرايا بنت الغول»، التي ظهرت في ١٩٩١، وما بينهما من أعمال، استطاع إميل حبيبي أن يشيد بناءه الروائي على موادّ متنوّعة متغايرة وأن يؤالف نصّه في دوائر متقاطعة وأن يجعل الكتابة الأدبية الساخرة تُحلّق في مناطق لم تكن مطروقة.

المتابع لأعمال إميل حبيبي على مدار أعوام إبداعه كافّة، سيجد أن هذا الكاتب الفلسطيني الكبير لم يتخلَّ عن أسلوبه الذي ربّما بلغ ذروته في «المتشائل»، ومن خلاله شقّ طريقًا جديدة الجِدّة كلّها للرواية العربية، لا تزال تغري العديد من النُّقاد والدّارسين بالمزيد من البحث والتقصّي في أدبه المتكامل وأسلوبه المخصوص.

رحل إميل حبيبي في الأول من أيار عام ١٩٩٦ عن ٧٥ عامًا (مواليد ٢٩ آب ١٩٢١). وخلال حياته العريضة ملأ الكثير من المواقع بجدارة لافتة. وفي جميعها ترك علامات فارقة على مسيرته، التي قد يوجز أحد جوانبها الأكثر إثارة العنوان الزخم: جدل الخصوصية والإبداع.

فقد كان أديبًا ومسرحيًا وكاتب مقالة وقائدًا سياسيًا وابنًا بارًّا لشعبه العربي الفلسطيني. كما كان العاشق الأكبر لمدينة حيفا - مسقط رأسه.

إبداعات إميل حبيبي في مختلف المضامير السالفة، التي يمكن من خلالها الاغتراف من مذاق الكينونة الفلسطينية عمومًا وفي الدّاخل خصوصًا، حافلة ضمن أشياء أخرى بتوصيفات للمكان الذي عاش

تبدّلاته في منعطفات المصير الإنساني. ومن الطبيعي أن تكون متّصلة اتصالاً وثيقًا بمدينة حيفا، حيث اختار أن يرقد فيها رقدته الأبديّة داعيًا، في وصيّته الغنيّة بالدلالات، إلى نقش عبارة «باقٍ في حيفا» على شاهد قبره عند سفوح الكرمل وعلى مقربة من زرقة البحر.

حاز إميل حبيبي على جوائز عديدة عربية وعالمية، لعلّ أبرزها «وسام القدس» (١٩٩٠)، أرفع جائزة فلسطينية. وشارك في العديد من المؤتمرات والمهرجانات الثقافية العربية. واختير في ١٩٩١ بوصفه الكاتب الأهم في العالم العربي من قبل مجلة «المجلة» اللندنية. وكان عضوًا في الكنيست (البرلمان الإسرائيلي) عن الحزب الشيوعي في السنوات ١٩٥٣- ١٩٧٢، وتولّى رئاسة تحرير صحيفة «الاتحاد» في السنوات ١٩٤٤- ١٩٨٩، حيث عمل على إنجاز تحويلها إلى جريدة يوميّة. وقبل وفاته أسَّس «مشارف»، المجلة الثقافية العربية الصادرة في حيفا، سوية مع إنشاء «دار عربسك للنشر».

أهم كتبه الأدبيّة المنشورة: «سداسية الأيام الستة» (١٩٦٩)، «المتشائل» (١٩٧٤)، «لكع بن لكع» (١٩٨٠)، «إخطيّة» (١٩٨٥)، «سرايا بنت الغول» (١٩٩١)، و«أم الروبابيكيا» (١٩٩٢)، و«سراج الغولة» النص الوصيّة المنشور بعد وفاته.

تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات بينها الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والإيطالية، بالإضافة إلى اللغة العبرية.

رغم الكثير الذي كتب عن تجربته الأدبيّة، ما زالت هذه التّجربة تستقطب القرّاء والنُّقاد والباحثين العرب ومن العالم أجمع، بالتطويرات والتجديدات التي أدخلتها على الرواية العربية، وبالتوازيات التي أقامتها بين شخصيّاتها وشخصيّات روائية أُخرى في الرواية العالمية، وبما أضافته على أشكال السَّرد العربية التراثية بعد الاستفادة منها، وفوق ذلك كلّه بما أحدثته من أثر متميِّز وبصمة خاصة على الكتابة الأدبية العربية، شكلاً ومحتوىً.

إصدار آثاره الكاملة بعد عشر سنوات على رحيله يتيح لكل راغب إمكانية الإطلالة من جديد على العالم المدهش والممتع الذي بناه إميل حبيبي وظلّ يشكّل منارة تنير الدَّرب أمام الأجيال العربية وأمام الإنسانية جمعاء، بعد وفاته، كما كانت الحال في حياته.

(النّاشر)



ISBN 965-7388-02-3

9 789657 388020